

الفصل الحادي والاربعون بعد المئة

المعربات

والاختلاط بين الأمم ، بمختلف وسائله ، ومن ذلك الاتصال التجاري، يؤدي الى حدوث تفاعل في اللغة ، فقد يولد هذا الاحتكاك ألفاظاً جديدة يطلقونها على أشياء لم يكن لأهل تلك اللغة علم بها ، وقد يضطر أصحابها الى استعمال المسميات الأجنبية كما هي ، أو بشيء من التبديل والتغيير ليناسب النطق بتلك اللغة . وقد وقع ما أقوله في كل اللغات ، ويقع الآن أيضاً ، وسيقع في المستقبل الى ما شاء الله ، لا استثناء في ذلك ، ولا تفاضل ، ولا امتياز . فاللغات كلها ، ومنها اللغة العربية في جاهليتها واسلاميتها ، تخضع لهذا الحكم والقانون .

وليس الأخذ والعطاء دليلاً على وجود نقص في لغة ما ، أو وجود ضعف في تفكير المتكلمين بها . فكل اللغات مهما بلغت من النمو والكمال والسعة ، لا بد لها من أن تأخذ وأن تطور مدلول مفرداتها أو تضع مفردات جديدة لأمر لم تكن معروفة وموجودة عندها . ولا نعرف لغة ما من اللغات الميتة أو الحية ، انفردت بنفسها انفرداً تاماً ، فلم تأخذ شيئاً ولم تعط شيئاً .

والعربية بجميع لهجاتها وألسنتها مثل اللغات الأخرى، وفي جملتها اللغات السامية أخذت وأعطت ، قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ولا تزال تأخذ وتعطي ما دام أصحاب اللسان العربي باقين في هذا الكون . والأخذ والعطاء ووضع مفردات جديدة في لغة ما ، هما من دلائل الحيوية ومن أمارات القوة والتكامل في تلك

اللغة . ومن دلائل هذا الأخذ والعطاء ، ما حدث في العصور الاسلامية : من أخذ وعطاء بين العربية واللغات الأعجمية ، فطعمت العربية الفارسية والتركية والرومية وغيرها بمادة غزيرة من الكلمات ، كما أخذت هي حاجتها منها . ومن دلائله أيضاً ما يقع اليوم من وضع المصطلحات لمعاني لا عهد للعربية بها من قبل كمتخترعات تظهر دوماً ومعاني علمية ليس للعلماء عهد بها ، ولا بد من وضع ما يقابلها في العربية ، بوضع لفظ عربي ، أو تعريب المصطلح وتكييفه وفق النطق العربي إن كان من غير الممكن إخضاعه للمفردات العربية .

وقد يزعم هذا الرأي فريقاً من الناس يذهبون الى أن العربية لغة نقية صافية لم تتأثر بغيرها من اللغات ، فلم تأخذ من اللغات شيئاً ، ولم يدخل اليها لفظ أجنبي ، أو ان ما دخل اليها من دخيل معرب هو قليل ، وهم في منطقتهم هذا محافظون متزمتون لا يعترفون بنظرية الأخذ والعطاء في اللغات . فإذا قلت لهم إن اللفظة الفلانية لفظة معربة وأصلها أعجمي ، أجابوك : ولكنها وردت في القرآن الكريم ، ووردت في شعر فلان ، وفسلان من الشعراء الجاهليين . وإذا قلت لهم : ولكن دخولها العربية كان قبل الاسلام بزمن ، وقبل ذلك الشاعر بزمن طويل ، وأن الجاهليين نسوا أصلها واستعملوها استعمال الألفاظ العربية ، فحكمتها اذن حكم الألفاظ العربية في أيام ذلك الشاعر ، وعند نزول الوحي ، أجابوك أيضاً : وكيف نؤمن أنها معربة ، أفلا يجوز أن تكون عربية في الأصل ، وقد أخذها الأعاجم أنفسهم من العربية ، ومن أين لك الدليل على العكس ؟ وإذا ذكرت لهم أن اللفظة الفلانية عبرانية في الأصل أو سريانية أو كلدانية ، قالوا : وكيف تثبت ذلك ، وهذه اللغات والعربية كلها من أصل واحد ودوحة واحدة ، فلم تحكم بأنها من أصل سرياني أو عبراني أو كلداني أو غير ذلك ، ولا تحكم بأنها عربية أصيلة ، وان وجودها في تلك اللغات ، هو بسبب اشتراكها والعربية في الأصل السامي . فهي في العربية أصيلة اذن ، وهي في تلك اللغات أصيلة أيضاً وقديمة بسبب مشاركتها للعربية في الأصل السامي .

وقد فات مثل هؤلاء ان القدامى من العلماء لم يفقههم أمر هذه المعربات، فأشاروا اليها ، ومنهم جمهور أصحاب كتب التفسير والحديث والمعجمات، وأن من العلماء من ألفت في هذا الموضوع ، فألفت أبو منصور المعروف بالجواليقي كتاباً في هذا

الباب دعاه : (المعرب من الكلام الأعجمي)^١ . ولم ينتقده مع ذلك علماء يومه ، ولا من جاء بعده لإقدامه على تأليف كتابه هذا ، ولم يقل أحد انه كان جاهلاً أو متحاملاً على العربية ، مسيئاً إليها ، لأنه أنكر أصول الألفاظ المذكورة في مؤلفه ، فعدّها أعجمية معربة مع انها عربية أصيلة ، لا شك في عربيتها ولا شبهة . قال (الجاحظ) : « ألا ترى ان أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ الخريز ، ويسمون السميط الرزديق ، ويسمون المصوص المزور ، ويسمون الشطرنج الاشرنج ، في غير ذلك من الأسماء »^٢ . ونجد في تفسير (الطبري) ، وهو من العلماء الثقات المحققين وفي تفاسير غيره من العلماء المدققين إشارات الى أصول ألفاظ وردت في كتاب الله ذكروا انها من المعربات ، وقد نصوا على أصولها التي أخذت منها ، حسب علمهم واجتهادهم في ذلك الوقت ، لم يجدوا في ذلك بأساً ولا انتقاصاً لحرمة القرآن ، أو مساً به .

وفي القرآن - كما يذكر العلماء - أكثر من مائة لفظة معربة ، نصوا على أصولها حسب علمهم واجتهادهم واستفسارهم من الأعاجم ، وهي كلمات دخل بعضها العربية قبل الاسلام بعهد طويل لعدم وجود مثل لها في لغة العرب ، فأخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها ، فصارت بذلك عربية ، وإنما وردت في القرآن لأنها كانت قد تعربت وجرت عند العرب مجرى الفصيح ، ولم تكن لديهم ألفاظ غيرها^٣ . وفي بعض هذه المعربات ألفاظ لم تكن مألوفة أو معروفة عند الوثنيين ، لأنها من ألفاظ أهل الديانات ، ونظراً لكونها تعبر عن أمور دينية ضرورية لا مثل لها في العربية ، وكان من اللازم تعليم الناس أياها ، لذلك وردت في القرآن .

وقد رجع العلماء أصول المعربات الواردة في القرآن الى لغات كانت شائعة آنذاك ومعروفة للعرب ، أخذها العرب منها باحتكاكهم بأهلها ، مثل اليونانية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرانية ، والحبشية ، والهندية ، والقبطية ، والنبطية ،

١ المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، لابي منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي ، تحقيق احمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ .
٢ البيان والتبيين (١٩/١) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٥٨/٢) .

حتى ذهب (أبو ميسرة) ، وهو من العلماء التابعين الى أن « في القرآن كل لسان » ، وروى مثله عن (سعيد بن جبير) ، و (وهب بن منبه)^١ . ولو راجعنا أقوال العلماء في هذه المعربات التي درسوها وتحدثوا عنها لوجدنا أنهم قد أخطأوا في تشخيص الكثير منها ، فلم يتمكنوا من الوقوف على أصولها ، لعدم معرفة أكثر علماء العربية اللغات الأعجمية . نعم تمكن العارفون منهم بالفارسية من تشخيص المعربات عن الفارسية ، غير أن منهم من زاد عليها وبالغ فيها ، فأدخل في المعرب عن الفارسية ما ليس من الفارسية بشيء . وأدخل ألفاظاً عربية أصيلة في طائفة المعربات ، مع أنها عربية جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي النصوص الأخرى^٢ ، وسبب ادخالهم لها ضمن المعربات ، هو عدم احاطتهم باللهجات العربية الجنوبية ، وباللهجات الجاهلية الأخرى . فتخطوا في تعيين الأصول ، فترى بعض منهم يرجع معرباً الى أصل عبراني ، وتجد آخر يرجعه الى أصل يوناني ، بينما يرجعه ثالث الى أصل حبشي ، وقع ذلك بسبب عدم وقوف العلماء على اللغات الأجنبية واكتفائهم بالاستفسار من الأعاجم ، ممن لم يكن لهم علم بعلوم اللغات ، وإنما كانوا يعرفون الكلام بها ، إذ لم يكونوا من أصحاب التضلع والتخصص ، كما أن عصبية البعض منهم لسانهم دفعتهم أحياناً إلى الاختراع وصنع الأجوبة الكاذبة ، يضاف الى ذلك عامل الادعاء بالعلم والفهم ، مما يحمل صاحبه على الوضع والكذب .

وبين الباحثين في المعربات الواردة في القرآن جدل في وجود المعرب فيه ، منهم من قال بوجوده ، ومنهم من رد القول به ومنعه ، فقال : « انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فنزعم ان فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، ومن زعم ان كذا بالنبطية ، فقد أكبر القول » ، وقالوا : « ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن انها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية أو نحو ذلك ، انما اتفق فيها توارد اللغات ، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد » . وبالغ بعضهم في نفي المعربات ، حتى قال : « كل هذه الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متسعة جداً ، ولا يبعد أن تخفي على الأكابر

١ السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (١٠٦/٢) ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)
٢ راجع الاتقان (١٠٨/٢ وما بعدها) ، حيث تجد أمثلة عديدة على ما أقول .

الجللة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر و فاتح ^١ .

والذين ذهبوا الى وقوعه فيه ، يرون بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً . وعلل بعضهم سبب وقوعه في القرآن بقوله : « إن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن ، انه حوى علوم الأولين والآخريين ، ونبأ كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء ، فاختر له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب » ، « وأيضاً النبي صلى الله عليه وسلم ، مرسلٌ الى كل أمة ، وقد قال تعالى : وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ، فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم ، وإن كان أصله بلغة قومه هو » ^٢ . وقال (ابن سلام) : « والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك ان هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتھا بألستھا وحوثتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية فصادق . ومال الى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون » ^٣ .

وقال (ابن النقيب) : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة ، انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب ، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير » ^٤ . فهو من الذين يرون ان في القرآن كل لسان .

ولا يقوم جدل المانعين من وقوع المعرب في القرآن ، أو القائلين به على أساس اختلافهم في وقوع المعرب في العربية ، وانما انصب كل اختلافهم على وقوع المعرب في كتاب الله . فالمانعون يقولون - كما رأينا - ان الله يقول : « قرآنًا عربياً » ^٥ و « ولو جعلناه قرآنًا أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته أعجمي

- ١ السيوطي ، الاتقان (١٠٥/٢ وما بعدها) .
- ٢ السيوطي ، الاتقان (١٠٦/٢ وما بعدها) .
- ٣ المصدر نفسه (١٠٨/٢) .
- ٤ السيوطي ، الاتقان (١٠٦/٢) .
- ٥ يوسف ، الآية ٢ .

وعربي^١ ، فكل ما فيه هو عربي اذن ، والذين يجيزونه ، يقولون إن هذه الأحرف أصولها أعجمية ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتھا بألستها وحوّلتھا عن ألفاظ العجم الى ألفاظھا ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية صادق^٢ . فالخلاف اذن خلاف عقائدي لا صلة له باللغة ، وبوقوع المعرب أو عدم وقوعه في العربية .

وهناك فريق آخر جماعته من المحدثين في الغالب ومن غير العرب ، ذهب مذهباً معاكساً لمذهب من ذكرت تماماً . تطرف في رأيه تطرفاً مسرفاً وبالغ في أحكامه مبالغة منكراً . رجّح ألفاظاً عربية استعملها الجاهليون الى أصول أعجمية ، وادعى انها من الألفاظ المعربة عن السريانية أو اليونانية أو اللاتينية أو العبرانية أو الفارسية ، لمجرد ورودها أو ورود مشابه لها في تلك اللغات ، وحثه في ذلك أن الجاهليين أميون أعراب وثنيون ، وأن الألفاظ التي رأوا عجمتها هي ألفاظ حضارة لها مدلولات دينية أو سياسية أو اجتماعية أو حرفية أو غير ذلك ، ولهذا لا يمكن أن تكون من صميم العربية ، بل لا بد أن تكون طارئة عليها دخيلة في الأصل ، ثم عربت . وفي هؤلاء المتعصب لجنسيتهم ، مثل أن يكون سريانياً أو يهودياً ، لهذا رجح تلك الألفاظ الى لغته لتعصبه لها، والمتأثر بنظرية جهل الجاهليين وعدم وجود أي علم أو ثقافة لديهم ، والمتعصب على الاسلام ، لهذا رجح أكثر الألفاظ الحضارية الى النصرانية أو اليهودية أو الفارسية ، لإثبات أخذ الاسلام منها، وتعلم الرسول ديانته من تلك الديانات .

أما البحث العلمي الخالص ، فهو ما كان بعيداً عن كل الميول والانجاسات والترعات ودوافع التعصب ، قائماً على الحقائق والوقائع وفكرة البحث عن الحق للتوصل اليه . فالرأيان في نظري باطلان ، بعيدان عن جادة العلم . وواجب الباحث في مثل هذه الأمور أن يترث أولاً ، وألاً يبت في قرار إلا اذا كان متأكداً من سلامة السبل التي سار عليها في الوصول الى قراره ، ولا سيما أن العربية والعبرانية والسريانية كلها من هذا الأصل الذي يطلق علماء الأجناس واللغات عليه :

١ فصلت ، ٤٤ .

٢ السيوطي ، الاتقان (١٠٨ / ٢) :

الأصل السامي ، وتشترك كلها أو أكثرها في كثير من الألفاظ ، والحكم بأن هذه أخذت من هذه أو تلك ، حكم فحج ناقص إذ لم يستند الى موارد ونصوص مرتبة ترتيباً تاريخياً . ثم ان العربية ليست عربية واحدة ؛ فإن هناك ألسنة عربية أخرى ، مثل عربيات اليمن ، وهي لهجات عربية قديمة ذات نصوص يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد ، فلا يجوز التعميم بالاستناد الى لغة القرآن الكريم وحدها ، بل لا بد من تتبع ما جاء في اللغات العربية الأخرى . أضف الى ذلك أن أهل اليمن كانوا أصحاب حضارة وحضارتهم أرقى وأعلى درجة من حضارة بعض الساميين . ولذلك يدفعنا الواجب الى دراسة ما جاء في نصوصهم من ألفاظ ومسميات وآراء ومقارنتها بما جاء في النصوص الواردة في اللغات السامية الأخرى ، للحصول على رأي علمي في هذه الأمور . ولكننا مع ذلك نحزن في وضع لا نتمكن فيه من البت في هذه الأمور ، لأن ما لدينا من نصوص جاهلية أغلبه من النوع الذي عثر عليه على ظاهر الأرض ، لأن الظروف لم تمكن العلماء حتى الآن من التنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في باطن مواطن الآثار ، لاستخراج المطور من الكتابات والآثار الأخرى ، والغالب أن يكون المطور ذا أهمية كبيرة ، وسيعين المؤرخين في كتابة الأجزاء المفقودة من تأريخ العرب قبل الاسلام . وقد يكون من بين ما يعثر عليه ما هو أقدم من النصوص التي بين أيدينا . وعلى هذه النصوص ان رتب ترتيباً زمنياً يوثق به ، يمكن أن يكون اعتمادنا في تثبيت المفردات ، وفي تعيين زمن استعمالها في العربية وفي كونها عربية أصيلة أو معربة .

إن وجود المعربات دليل على اتصال الجاهليين بغيرهم ، واتصال غيرهم بهم . وعلى الروابط الفكرية التي كانت بين العرب وبقية الساميين ، وبين العرب والشعوب الأخرى وجمعها وتصنيفها لذلك في مجموعات حسب الموضوعات يعطينا رأياً عن النواحي التي تأثر بها الجاهليون في أمور الحياة . غير ان هذا العمل عمل شاق ، ويجب أن يستند الى معجمات جامعة مرتبة ترتيباً تاريخياً ، تذكر الكلمة ، ثم تذكر أصلها ومن أي أصل أخذت وفي أي زمن كان ذلك ، وأول من استعمالها أو أقدم نص عربي وردت فيه ، وفي أي معنى استخدمت ، وهكذا . ولكننا لا نملك ، ويا للأسف ، مثل هذه المعجمات . وكل ما لدينا معجمات قديمة ، لم تنته لهذه الأمور ، ولم تميز الجاهلي من الاسلامي ، ولا اللفظ الوارد في عربية القرآن الكريم من اللفظ الوارد في اللهجات العربية الأخرى . فذكرت الألفاظ

الواردة في اللهجات العربية الأخرى على أنها مرادفات ، ترد في عربيتنا على حين أنها مسميات للشيء ذاته في اللغات العربية الأخرى .

والذين يقولون بعدم وقوع المعرب في كلام العرب ، كأنهم يتصورون ان العرب كانوا معزل عن العالم وانقطاع عن الناس . ولهذا لم يتأثروا بغيرهم ، ولم يؤثر في غيرهم ، وأن عرقهم لذلك بقي صافياً نقياً سليماً ، لم تدنسه أعراق أعجمية ، ولم يمازج دمهم دم غريب ، ولم تدخل لغتهم لفظة غريبة، بل بقيت نقية صافية على ما خلقها الله يوم خلق اللغات . وقد تكون في اللغات الأخرى ، كلمات دخيلة ، أما العربية فحاشاها من ذلك !

وهؤلاء لا يدرون انه قد كانت في سواحل جزيرة العرب قبل الاسلام مستوطنات يونانية ، نشأت في مواضع عديدة من سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر العربي والخليج العربي ، وقد بقي أصحاب تلك المستوطنات في مستوطناتهم فلم يعودوا الى ديارهم ، ونسوا أصولهم وعاداتهم ، وصاروا عرباً مثل سائر العرب، يرجعون أنسابهم الى أصول عربية على عرف العرب والأعراب . وأن منهم من بقي عرقه اللداس يحن الى أصله، فقد ذكر المؤلفون اليونان ان بعض القبائل العربية الساكنة على السواحل ، كانوا يرحبون ببعض اليونان ، لاعتقادهم انهم يجمعهم واياهم صلب واحد .

يضاف الى ذلك الرقيق من الجنسين ، وقد كانت بلاد العرب تجلب عدداً كبيراً منه في كل عام ، تشتريه من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشام ، وتوكل اليه القيام بأعمال مختلفة ، ولا سيما الأعمال التي تحتاج الى خبرة ومهارة فنية ودراية . ونحن نعلم أن العربي الصريح بأنف من الاشتغال بالحرف وزراعة الخضر ، ولذلك وُكِّلَ الى هذا الرقيق أمر القيام بها ، فأدخل الى العربية كثيراً من الألفاظ الخاصة بالزراعة والحرف ، لم تكن معروفة في العربية ، كما سأحدث عن ذلك فيما بعد .

يضاف الى ذلك أيضاً، التجارة . فقد كان التجار من عرب وغرباء يتعاطونها في جزيرة العرب وفي خارجها ، يصدرون منها حاصلاتها وما تجمع فيها من سلع مستوردة من سواحل افريقية الشرقية والهند ، ويأتون اليها بما تحتاج اليه قبائلها وأهل مدنها وأهل إفريقيا من بضائع مصنوعة أو منسوجة من حاصل الانبساطوريتين

الساسانية والرومية والأرضين المصاحبة لها . ومن الطبيعي أن يؤدي ذهاب التجار العرب الى أسواق العراق وبلاد الشام ، واحتكاكهم بالفرس والروم ، الى الوقوف على أحوالهم والاتصال بهم والأخذ منهم والتأثر بثقافتهم وحضارتهم واقتباس ما يلائمهم منهم ؛ ومن الطبيعي أن يؤثر التجار الروم والفرس بعض التأثير في نفوس زملائهم العرب في الأماكن التي ولجوها من جزيرة العرب ، وأن ينقلوا اليهم شيئاً من آرائهم وأفكارهم وتجاربهم في الحياة، وأن يعطوهم شيئاً من مصطلحات لغتهم التي لا تعرفها العربية ، ومن الأسماء الخاصة بالتجارة وبال بضائع التي يأتون بها الى جزيرة العرب لبيعها في أسواقها .

وكان للمبشرين شأن مهم في نقل التراث اليوناني والإرمي الى جزيرة العرب في أيام الجاهلية ، وبجهادهم المضني المتواصل وعملهم المتوالي، دخلت النصرانية في أماكن متعددة قاصية من بلاد العرب، حتى تمكنوا من تنصير قبائل وأمرأ ورؤساء قبائل ، بطريقتهم الخاصة في الاقتناع والتأثير ، وبالتطبيب ، وبالتقرب الى ضعاف الحال من الناس. وقد اتبعوا في التبشير وفي إدارة المؤسسات التبشيرية النظم الإدارية والدينية المتبعة في الكنيسة ، فجعلوا (بيت قطرايا) ، أي (قَطْرًا) الموضع المعروف اليوم على ساحل الخليج ، كرسياً لـ (مطرابوليطي) ، يقيم فيه ، ويشرف على إدارة خمسة أساقفة ، يقيمون في (ديرين) و (مشمهيخ) أي (سماهيح) وهجر وبلاد (مازون) و (حطا) المسماة (يسط أردشير)^١ ، وهي الخطأ .

وفي موضع مثل نجران غلبت النصرانية على أهلها، نظمت الكنيسة شؤون المدينة، فتولى رئيسها الديني ، وهو بدرجة (أسقف) ، الأمور الدينية ، وتولى (السيد) أمور الحرب وإدارة المسائل الخارجية المتعلقة بعلاقة نجران بغيرها، وتولى (العاقب) الأمور الداخلية ، وهم جميعاً يؤلفون معاً مجلس المدينة فيديرون معاً أمور الناس، وينظرون في كل ما يحدث بينهم من نزاع وخصومات . وهكذا نظمت العلاقات بين كنيسة المدينة وحكامها ، وانسجم الحكم بين الجماعتين .

وقد أدخل التبشير أفاضلاً يونانية وسريانية ترد في الديانة وفي الحياة اليومية الى

١ أدي شير ، تاريخ كلدو وآثور ، المجلد الثاني ، (المقدمة) .

اللغة العربية ، ولا سيما المصطلحات الخاصة بتنظيم الكنيسة وبالحياتة النصرانية ، كما كان لبعض الشعراء الجاهليين يد في إدخال بعض المصطلحات النصرانية الى العربية ، كالذي نجده في شعر (امرئ القيس) والأعشى وعدي بن زيد العبادي وغيرهم من كلمات ترد بكثرة عند النصارى ، نتيجة اتصالهم واحتكاكهم بهم ، فصارت بذلك تلك الكلمات من المعربات .

ويضاف الى من ذكرنا اليهود ، فقد كان لهم أثر في الجاهليين ، في يهود العربية الغربية خاصة ، أي في الحجاز ، في البقعة الممتدة من (يثرب) حتى بلاد الشام ، وفي اليمن . فقد سكن اليهود في هذه المواضع ، وبنوا لهم مستوطنات فيها ، واختلطوا بعربها ، واحترفوا الحرف كما ذكرت ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد كانت (مدرشات) اليهود في يثرب وفي المستوطنات اليهودية الأخرى تلقن اليهود أحكام دينهم ، وتعلم أطفالهم القراءة والكتابة . وقد قصدها العرب وجلسوا فيها يستمعون الى يهود . وقد شاهدها الرسول بعد هجرته الى المدينة ، وحضر جدلاً كان قد وقع بين جماعة من يهود ، كما حضرها أبو بكر ونفسر آخرون من الصحابة . وكان أحبارهم يدرسون فيها ويفتون ، كما كانوا يقيمون الصلوات واحتفالات الأعياد في (الكنيس) . ومن هؤلاء اليهود ومن (مدرساتهم) انتقلت الألفاظ العبرانية الى العربية فعربت ، وفي جملة ذلك لفظة (مدراس) ، و (سفر) ، و (تورا) ، و (تابوت) ، و (حبر) ، و (كاهن) وغير ذلك من مصطلحات ، لأكثرها صلة بشؤون الدين .

ان الحاجة ، هي التي تحمل الناس على الأخذ والعطاء ، وبها نفس اقتباس العرب للمعربات . فأسماء بعض الآلات والأدوات والطرق الفنية والأنسجة الدقيقة المصنوعة من الحرير وأسماء المأكولات النفيسة وأسماء النبات التي هي من أصل شمالي وبعض المشروبات وما شابه ذلك ، إنما دخلت العربية وعربت لأسباب عديدة ، أهمها أن الحياة في جزيرة العرب حياة عادية ، تكاد تجري على وتيرة واحدة ، فلم تساعد على ظهور الأمور المذكورة ، فاضطر الناس بحكم الحاجة الى أخذها من غيرهم واستيراد أشياء مادية وغير مادية من جيرانهم ، حتى في الأمور الفكرية والروحية ، مثل المعربات الدينية ، فإنها خضعت لحكم الحاجة ، فالنصارى

العرب استعملوا معربات من أصل سرياني ، لأنهم اضطروا الى استعمالها ، لأنها تعابير دينية لا وجود لها عند العرب الوثنيين أولاً ، ثم هي مصطلحات رسمية كنسية ، لم تتساهل الكنيسة في تغيير أسمائها ، ولهذا استعملها العرب على النحر المرسوم ، كما يستعمل الأعاجم المسلمون المصطلحات العربية ، لأنها مصطلحات اسلامية ليس لها مقابل في لغتهم ، أو لأنها مصطلحات دينية نخب المحافظة على تسميتها وان وجد لها مقابل في لغات الأعاجم .

وأكثر المعربات الجاهلية ، هي من أصل يرجع الى لغة بني لرم أو الى لغة الفرس ، ثم تليها المعربات المأخوذة من لغات أخرى مثل اليونانية والعبرانية واللاتينية والحبشية والقبطية ، وكثير من الألفاظ اليونانية إنما دخل الى العربية عن طريق السريانية ، فقد كان السريان قد أدخلوها في لغتهم ، لأنها لم تكن معروفة عندهم ، ومن لغتهم هذه تعلمها الجاهليون .

والمعربات السريانية الأصل ، هي في الزراعة في الغالب ، وفي التوقيت ، ثم في موضوعات دينية وصناعية وتجارية وفي أمور أخرى . أما المعربات عن الفارسية فهي في موضوعات زراعية كذلك وفي أسماء المأكول والملبوس وأمور اجتماعية . وأما المعربات عن العبرانية ، ففي أمور خاصة بسكناهم بين العرب وبأمور دينهم وشؤونهم . وأما المقتبس عن اليونانية فهو في أمور حريفية ، وفي مصطلحات دينية ومصطلحات زراعية ومصطلحات تستعمل في شؤون البحر وما شاكل ذلك .

وتفسير وجود المعربات السريانية والفارسية بنسبة تزيد على نسبة وجود المعربات الأخرى ، هو ان المتكلمين بلغة بني لرم كانوا مزارعين في الغالب ، وكانوا على اتصال بالعرب ، وقد خالطهم العرب وعاشوا بينهم ، واقتبسوا منهم ، حتى انهم كتبوا بلسانهم ، ودخل الكثير منهم في دينهم ، دين النصرانية ، ولا سيما قبيل الاسلام . وقد كانت أحوالهم الاجتماعية مشابهة للأحوال الاجتماعية عند العرب ، ولا سيما عرب بلاد الشام والعراق . ووضع مثل هذا يؤدي بالطبع الى الاقتباس والأخذ والعطاء . وأما الفارسية ، فقد كان الفرس يحتلون بلاد العراق وكان لهم نفوذ على العربية الشرقية ، وقد استولوا على اليمن قبيل الاسلام ، ولهم تجارة مع أهل مكة وأماكن أخرى ، وبحكم هذه الصلات دخلت في العربية ألفاظ فارسية وصارت في عداد المعربات .

ونحن اذا تتبعنا صورة توزع المعربات بين العرب ، نجد ان توزيعها يختلف باختلاف الأمكنة ، فهناك أمكنة تأثرت بالمعربات الفارسية بالدرجة الأولى، وهناك مواضع تأثرت بالمعربات السريانية في الأكثر ، وهناك أقاليم تأثرت بالمعربات عن اليونانية أو الحبشية بالدرجة الأولى. ثم نجد ظاهرة أخرى في كيفية توزع المعربات وظهورها ، هي ظاهرة الحاجة والظروف السائدة في مكان ما. فيمكننا اذن ارجاع تأثير لهجات العرب الجاهليين بالمؤثرات اللغوية الأعجمية اذن الى عاملين : عامل الاختلاط بالأعاجم عن طريق الجوار أو السكن معهم في موضع واحد ، واستخدامهم لهم ومجيء الأجانب من تجار ومبشرين اليهم ، وعامل الحاجة التي كانت تدفع الى أخذ أشياء غير معروفة في بلاد العرب ، فتدخل العربية بأسمائها الأعجمية ، فإذا انقضى زمن عليها ، تدخل في ضمن اللسان العربي وتعرب ، حتى ليخيل الى من لا يعرف أصلها أنها عربية الأصل والتجار .

ولما تقدم نرى ان المعربات عن السريانية والفارسية هي أظهر وأبرز في لهجات عرب العراق من المعربات الأخرى، وان المعربات عن السريانية واليونانية – اللاتينية أبرز وأوضح في لغة عرب بلاد الشام من المعربات المنقولة عن الفارسية أو الحبشية. وان المعربات عن الحبشية واللهجات الافريقية ، هي أوضح وأكثر ظهوراً في لهجات العرب الجنوبيين من المعربات الأخرى ، وذلك بسبب اختلاط العرب الجنوبيين بأهل الساحل الافريقي الشرقي ووجود جاليات افريقية في العربية الجنوبية وجاليات عربية جنوبية في السواحل الافريقية المقابلة منذ أيام ما قبل الميلاد ، فأدى هذا الاختلاط والتجاور الى الأخذ والعطاء في اللغة . كما نجد المعربات عن الهندية والفارسية والإرمية ظاهرة بارزة على السنة أهل الخليج ، لاتصالهم بالهند وبفارس وبالعراق .

وأما مثال ظهور المعربات بسبب الحاجة ، فهو ما نجده في لهجة أهل يثرب وما حولها من مؤثرات فارسية وسريانية في الزراعة بصورة خاصة وفي نواح أخرى من نواحي الحياة الاجتماعية ، فقد استعمل أهل المدينة ألفاظاً فارسية في لهجتهم ، بسبب حاجتهم وظروفهم . فأرضهم أرض خصبة ذات آبار ومياه ، ولما كانوا في حاجة الى أيدي عاملة لتشغيلها لاستغلال مواردها استعانوا بالرقيق، وكان معظم الرقيق الذي جيء به ، من رقيق العراق الذي يرجع الى أصل فارسي ، أو نبطي متأثر بالفارسية ، لرخص ثمنه بالنسبة الى رقيق الروم، ولفطنته ولمهارته في الحرف

بالنسبة لرقيق افريقية ، وعن طريق هذا الرقيق دخلت المعربات الفارسية والنبطية المستعملة في الزراعة وفي أمور أخرى عرف بها الفرس والنبط الى (يثرب)^١ .
أما أهل مكة ، فلم تظهر المعربات الزراعية عندهم ، لعدم وجود حاجة لهم اليها ، بل استخدموا معربات أخرى في الأمور التي كانوا بحاجة اليها ، والتي لم يكن لها وجود عندهم ، وقد دخلت اليهم من أماكن مختلفة ، كان لهم تعامل معها ، ومن الرقيق والتجار الغرباء الذين كانوا يعيشون بها .

ولبعض المحدثين بحوث في الدخيل من السريانية على العربية ، من جملتها بحث للمستشرق (فرنكل) Fränkel ، دعاه (الألفاظ الآرامية الدخيلة على العربية) المستشرقون في هذا الباب . كما ان لآباء الكنيسة الشرقيين مؤلفات وبحوثاً في الألفاظ السريانية في العربية ، وضعوها بالعربية ، نشر بعضها في مجلة المشرق ، ونشر بعض آخر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ونشر بعضه في كتب ، مثل كتاب : (غرائب اللغة العربية) ، تأليف الأب رفايل نحلة اليسوعي ، وفيه باب خاص بالكلمات الدخيلة في العربية الداخلة فيها من الآرامية والعبرانية والفارسية واليونانية ومن التركية واللاتينية والايطالية والفرنسية ومن لغات أخرى^٢ .
وفي بعض هذه البحوث تسرع في الأحكام ، إذ فيها ألفاظ نسبت الى أصل سرياني ، وهي من الألفاظ الواردة في اللهجات العربية القديمة ، وفيها مما يرد في العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، لأنه من المشترك الذي يرد في أصول الساميات .

وقد رأيت اختيار ألفاظ في الزراعة أو ألفاظ لها علاقة بها ، من القائمة التي أوردتها (الأب رفايل نحلة اليسوعي) ، للألفاظ الآرامية الداخلة في العربية ، وذلك للوقوف عليها ، ولتكوين فكرة عنها ، وبعض هذه الألفاظ هو في رأيي مما استعمله العرب قبل الإسلام ، ووارد في النصوص الجاهلية ، فن الصعب ارجاعه الى أصل آرامي من غير نص أو دليل منطقي مقبول ، وبعضه من النوع الوارد في العربية وله أصل عربي ، فلا يمكن أن يقال إنه من أصل آرامي ،

١ البيان والتبيين (١٠/١) .

٢ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ .

لمجرد وجود مرادف له أو لفظ مقارب له ، وبعض آخر هو من الألفاظ التي ترد في كثير من اللغات السامية فلا يجوز تخصيصه بالسرياني ، وارجاع أخذ العرب له من هذا الأصل .

ومن اللهجات في الزراعة وما يتعلق بها وبالفاواكه والحبوب والأزهار وما شاكل ذلك : (أس) وهو من أصل سرياني هو (اسو) ، و (أب) بمعنى ثمرة من (أبو) ، و (أرف) و (أرفى) من أصل سرياني كذلك بمعنى قسم الأرض وحددها ، ومن يمسح الأرض ويحددها . و (أكار) بمعنى حرث ، أي من يحرث الأرض من أصل Akoro ، و (أنوب) ، من (أبوو) Aboubo بمعنى قصبه وأنبوب أجوف وما بين عقدتين من القصب ، و (اندر) بمعنى بيدر ، من (ادرو) Edro و (باسور) بمعنى عنب غير ناضج ، و (باكورة) ويراد بها أول الثمر من Bakorto و (بطيخ) ، أي البطيخ من fatiho ، و (بور) صفة للأرض من (بورو) bouro و (بيب) ، بمعنى قناة ويجرى الماء الى الحوض من أصل (بيبو) bibo ، و (بيدر) من bayt-edro و (تبن) من (تبنو) ، و (نخم) بمعنى حدة من أصل (نخومو) thoumo و (ترعة) ، بمعنى قناة عميقة من (ترعتو) و (توت) من touto و (ثوم) من toumo و (جن) من أصل goubno والجريب من gribo ، و (جرام) بمعنى نواة من أصل garmo ، و (الجرن) ويراد به حجر منقور للماء وغيره من Gournو ، و (الجب) بمعنى الجرة الكبيرة من (حبو) Houbo و (حمص) من (حمصو) Hemso و (حندقوق) من Handqouqo ، و (خبيص) ، بمعنى حلوى مخبوضة ، من طحين وسمن وعسل وأصلهما (حبيصو) Habiso ، و (الخردل) من (حردلو) Hardlo ، و (خس) من (خسو) Haco ، و (الحوص) الذي يكون على السعف من (حوصو) Houso ، والحوخ من Houho و (الدبرة) البقعة المزروعة أي الحقل من (دبرو) dabro و (دبس) أي الدبس من debcho و (دبق) من debeq و (درس) ، كأن نقول درس الخنطة من drach و (دقلة) أي نخلة من deqlo و (رُب) وهو ما يخر من عصير الثمار من أصل Raubo و (رحى) من Rahyo و (رمان) من أصل Roumono و (ريحان) من Rihno و (زبن) بمعنى باع الثمر على شجره من Zaban بمعنى باع

و (زبون) بمعنى مشتري من Zobouno و (زفت) من أصل Zefto و (زق) من Zeqo و (زمارة) ، قصبة يزرعها من Zamorto و (زيت) من Zayto و (زيتون) من Zaytouno و (سكة) مثل سكة المحراث من Sekto و (سكر) ما يسد به النهر ، من Chakro و (سلاء) أي شوك النخل من Salvo و (سماءق) من أصل Sawmoqo ، وسنبل الحنطة من Seblo و(سنبل) بمعنى نبات طيب الرائحة من Sanboul و (شتلة) ما قلع من النبات ليغرس في مكان آخر من أصل Chetlo ، و (شرعوف) نبات وثمر من أصل Sour'afو (شالم) و (شولم) و (شيلم) من Chaylmo و (صعتر) من Setro و (صنصاف) من Safsofo و (مطمورة) ، وهي حفرة تحفر في الأرض يوسع أسفلها لحفظ الحبوب من matmourto و (عذق) أي عنقود عنب أو نخل من (عذق) daq و (عقص) من 'afso ، و (عqsار) خمر ونبات يتداوى به ، وقد سمي العرب الخمر دواء من أصل 'egro ، و (عنب) من 'enbo ، و (عنقر) جذر القصب من 'eqoro بمعنى جذر و (عود) وهو العود الذي يتبخر به من 'ouda و (غابة) من أصل 'obto بمعنى غابة كثيرة الأشجار ، وغدير بمعنى نهر وبركة يتركها السيل من gadiro ، و(غرب) نوع من الحور من أصل 'arbo ، و (فجل) من fouglo ، وفدان من أصل fadno ، و (فرث) ، من fertو و (الفروج) من Farougo ، و(الفرخ) من farahto و (فرع) بمعنى غصن من (فرعو) Fer'o ، و (فقح) مثل (فقح النبات) بمعنى أزهر من أصل (فقح) fqah ، و (فقاح النبات) أي زهره من أصل (فقحو) fagho ، و (فقد) ، بمعنى شراب من زبيب أو عسل من (فقودو) fqodo ، و (فُل) وهو زهر يشبه الياسمين من (فلو) Falو ، و (قناء) من qtoutو ، و (قش) من qecho ، و (قصر) وهو ما يبقى في الغربال من النفاية ، من أصل (قصرو) qisro أي قشرة الحنطة ، و (القطران) وهو سائل زيتي يستخرج من بعض الأشجار من أصل (قطرون) qotron ، و (القفيز) وهو مكيال من (قفيزو) qfizo ، و (ققص) من (قفسو) qafso ، و (قلة) بمعنى جرة كبيرة من (قلتر) qoulto ، و (قح) أي حنطة ، من (قحو) qamho ، و (كاث) وهو ما ينبت مما انتثر من الزرع المحصود من koto ، و (كدّاس) الحب المحصود المجموع من

(كدينحو) qdicho ، و (كرت) بمعنى حمل ستة أوقار حمار ، أو ستون قفيزاً من (كورو) Kouro ، و (كرب) من أصل (كرب) Krab ، و (كُرات) من Karoto ، و (كرخ) بمعنى أجرى وحول من (كرخ) Krak ، و (كرفس) من (كرفسو) ، Krafso و (كزبرة) من (كوزبرتو) Koubarto ، و (كمثري) من (كومترو) Komatro ، و (معين) نعت للواء الجاري على وجه الأرض من (مينو) m'ino ، و (نجر) من (نجر) Nagar ومنها النجار ، و (نشوق) من (نسكو) Nosko و (نظر) بمعنى حرس من (نظر) Ntar ومنها الناظر أي الحارس ، و (نُطَّار) وهو ما يكون على هيئة رجل ينصب بين الزرع لإخافة الطيور وإبعاد الحيوانات المضرة به من (نوطورو) notoro ، و (نيطل) بمعنى دلو من (نطلو) notlo ، ونعناع من mon'o ، و (نورج) سكة المحراث من (نورجو) Norgo ، و (نير) وهي خشبة معترضة في عنقي ثورين يجران محراثاً من (نيرو) Niro ، و (هرطمان) من qourtomo ، وبل ووابل بمعنى المطر الشديد من (يسل) Yibal ، و (ورد) من (وردو) Wardo ، و (وسق) بمعنى حمل بعير من (وسقو) Wasqo ، و (يتوع) ، كل نبات له لبن ، أي سائل أبيض في داخله يشبه اللبن من (يتوعو) Yatou'o .^١

وقد وردت لفظة (الأب) في القرآن الكريم: « وفاكهة وأبا . متاعاً لكم »^٢ . وقد ذكر ان (عمر) قال : « قد عرفنا الفاكهة فما الأب ؟ » قال : لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف »^٣ ، وقد اختلف المفسرون في المراد منها ، مما يدل على أن اللفظة لم تكن معروفة عندهم معرفة واضحة ، وفي كلام عمر : « إن هذا هو التكلف » ، أو قوله : « ما كلفنا أو ما أمرنا بهذا »^٤ دلالة على عدم وضوح معناها عنده وعند الناس . وهي بمعنى (ثمرة) في الإرمية من

١ غرائب اللغة (من الصفحة ١٧٢ الى الصفحة ٢١٠) .

٢ عبس ، الآية ٣١ ،

٣ تفسير الطبري (٣٨/٣٠) ، تفسير الالوسي (٤٧/٣٠) ، تفسير ابن كثير (٤٧٢/٤)

وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١٤٢/١) ، (أب) .

Ebo ، وقد ذهب العلماء الى أن (الأب) ما تنبت الأرض للأنعام والماشية^١ ، فهي في معنى آخر ، يخص العشب والكأ وما تنبته الأرض ليعلفه الحيوان في رأي غالبية العلماء ، غير المعنى الوارد لها في السريانية .

وأما (الأرف) ، فبمعنى تقسيم الأرض وتخصيبها ، ويقال لمن يمسح الأرض ويعين حدودها (ارفو) Arfo في الأرمية^٢ ، وقد ذكر علماء اللغة أن الأرف الحدود بين الأرضين ، أو معالم الحدود بين الأرضين . « وفي حديث عثمان رضي الله عنه ، الأرف تقطع الشفعة ، وهي المعالم والحدود . هذا كلام أهل الحجاز ، وكانوا لا يرون الشفعة للجار »^٣ .

وأما (الأكار) فيذكر علماء اللغة أنها من أصل (أكر) ، بمعنى (حفر) ، والأكار بمعنى الحفّسار والحراث والزراع . ومن ذلك حديث « أبي جهل : فلو غير أكار قتلني » ، أراد به احتقاره وانتقاصه^٤ . وتقابل هذه اللفظة لفظة (اكورو) Akoro في الأرمية التي هي « اكار »^٥ .

وبين الألفاظ التي ذكرتها ألفاظ لا يوجد دليل على أنها معربة من أصل لرامي لأننا نجد ان لها جذراً عربياً ، وهي ليست من المسميات التي لم يعرفها العرب حتى نقول انها استوردت من الخارج ، أو ان الحاجة حملت العرب على تعلمها من الرقيق الذي كان عندهم أو من المبشرين أو التجار الغرباء .

وأما المعرب عن الفارسية مما يخص الزراعة ، فأكثره في أسماء أثمار أو أزهار أو روائح و عطور ، مثل (الخربز) بمعنى البطيخ ، من أصل (خربوزة) . وفي الحديث عن أنس قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الخربز والرطب » . وفي حديث عن عائشة : « يأكل البطيخ بالرطب »^٦ . و (السيسنبر)

-
- ١ الموارد المذكورة .
 - ٢ غرائب اللغة (١٧٢) .
 - ٣ تاج العروس (٣٩/٦) ، (أرف) .
 - ٤ تاج العروس (١٧/٣) ، (اكر) .
 - ٥ غرائب اللغة (١٧٣) .
 - ٦ الجواليقي : المعرب (ص ١٣٧) ، فتح الباري (٤٩٦/٩) ، عون المعبود (٤٢٧/٣) وما بعدها .

نوع من الریحان^١ ، و (الجبل) بمعنى الورد^٢ ، و (الجلاب) أي ماء الورد . وقد وردت اللفظة في حديث عائشة عن الرسول^٣ . وذلك دليل على ان اللفظة كانت معروفة قبل أيام الرسول . ويلاحظ ان لفظة (بطيخ) هي من الألفاظ العربية كذلك ، عربت من أصل (فطيخو) بلغة بني لارم^٤ .

وقليل منه ما يخص آلات الزراعة أو الأرض ، مثل (بستان) والجمع (بساتين)^٥ ، وذلك لأن غالبية الذين كانوا يفلحون الأرض ويزرعونها في العراق وفي بلاد الشام ، هم من بني لارم أو من المتكلمين بلغتهم ، وباحتكاك العرب بهم تعلموا أسماء الآلات والأدوات وطرق حرث الأرض وزرعها ، وأسماء كثير من الزروع ومقاييس الأرض وطرق الاستفادة من الأرض ، فدخلت الى العربية . أما الفرس في العراق ، فلم يكونوا يباشرون زراعة الأرض وفلاحتها في العراق ، وإنما كان (مرابتهم) وأثريائهم يمتلكون الأرضين الواسعة ، ويسخرون أهل البلاد في استغلالها لهم ، ولهذا لم تترك لغتهم أثراً كبيراً يشبه الأثر (الإرمي) من ناحية الزراعة في العربية .

أما المعربات في الزراعة عن اليونانية ، فأقل عدداً ، إذ لم يكن العرب على اتصال مباشر بالزارعين اليونان ، لهذا لم يأخذوا عنهم كثيراً . والمعروف من المعربات في هذا الباب هو في أسماء نمر نبات أو بذور ، أو ما يتعلق بحاصل عنب ، مثل الخمر ، فقد كان أهل الحجاز يستوردون الخمر من بلاد الشام ، وقد تعلمها أهل هذه البلاد من الروم بأسمائها اليونانية . ولما أخذها العرب من بلاد الشام ، حرفوا الأسماء بعض التحريف لتلائم المنطق العربي .

ومن هذه المعربات : (الاسفنت) : وهي أجود الخمر المطيب من عصير العنب ، من أصل (افستين) Apsinthion ، كان الخمر يطيب به^٦ . و (خندروس) ، ويراد بهسا نوع حنطة ، أو حنطة مجروشة من أصل Khandros^٧ ، و (خندريس) ويراد بها خمر معتقة ، ونعت لخمر مصنوعة من

- ١ الجواليقي (ص ٨٠ ، ١٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٥) .
- ٢ الجواليقي (ص ١١٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .
- ٣ الجواليقي (ص ١٠٦) فتح الباري ، لابن حجر (٣١٧ / ١) ، المزهري (٢٧٦ / ١) .
- ٤ غرائب اللغة (١٧٤) .
- ٥ الجواليقي (ص ٥٣) .
- ٦ الجواليقي (ص ١٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
- ٧ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) ، « وأخبرنا عن يعقوب أن « الخندرس » : القديمة يقال : حنطة خندريس ، أي قديمة » ، الجواليقي (ص ١٢٥) .

الكرم اسمه ¹ Kantharios . و (زنجبيل) ، وهي من أصل zinguiveri . ومن الألفاظ الواردة في القرآن الكريم . وقد ذكرت في شعر منسوب الى الأعشى ² . و (القرنفل) ، من أصل ³ Kariofillon . و (كافور) من Kafoura . وفي السريانية qafouro ⁴ . و (المسطار) ، ويراد بها الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب حديثاً ⁵ ، وأصلها (مسطس) Moustos ⁶ . و (نرجس) من أصل ⁷ Narkisos .

وبلاد الشام أكثر شهرة من العراق في الأعتاب ، وهي مادة صالحة لصنع أنواع متعددة من الخمر . أما أهل العراق ، فقد استخرجوا خمرهم من التمر ، فلم يعرف لهذا السبب بتنوع الخمر . وقد استغل سكان جزيرة العرب التمور أيضاً لاستخراج الخمر منها ، وذلك في الأماكن التي تكثر فيها النخيل ، وتقل أشجار الكروم . ولا اتصال الحجاز ببلاد الشام بالقوافل الكبيرة ، كانت الخمر من أهم السلع التي تستوردها القوافل من تلك البلاد .

ومن الألفاظ الآرامية التي دخلت في العربية ، ولها معان دينية لفظة (ابل) بمعنى تنسك من «ébal» ، و (تأبل) بمعنى (حزن) من «étébal» ، و (أيبيل) بمعنى راهب من (أيلو) «abilo» الإرمي بمعنى ناسك وراهب ⁸ . وقد جعلها (الجواليقي) فارسية الأصل ⁹ ، وهو خطأ منه . و (الباعوث) ، صلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف من أصل «bo'outo» بمعنى صلاة وطلب ¹⁰ ، و (برخ) بمعنى زيادة ونماء من (برختو) bourhto بمعنى بركة وعطية ¹¹ . و (البيعة) من (بيعتو) ¹² Bi'to . و (الدنج) ، ويراد بها عيد الغطاس ،

-
- ١ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) .
 - ٢ الجواليقي (ص ١٧٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٩) .
 - ٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) .
 - ٤ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) ، الجواليقي (ص ٢٨٥ وما بعدها) .
 - ٥ الجواليقي (ص ٣٢١) .
 - ٦ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .
 - ٧ غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
 - ٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
 - ٩ الجواليقي (ص ٣٠) .
 - ١٠ الجواليقي (ص ٥٧) ، غرائب اللغة (ص ١٧٣) .
 - ١١ الجواليقي (ص ٨١ وما بعدها) ، وغرائب اللغة (ص ١٧٤) .
 - ١٢ الجواليقي (٨١) ، غرائب اللغة (ص ١٧٥) .

من أصل (دنحو) denho^١ . و (دير) أي بيت الرهبان ، من أصل دار^٢ .
و (ديراني) نسبة الى (دير) ، من أصل Dayronoyo^٣ . و (ربّاني) ،
بمعنى عالم بشرية اليهود ، وحاخام أي معلم من أصل (ربونو) Rabono^٤ .
و (روح القدس) من (روح قدشو) Rouhqoudcho^٥ . و (مزموور) من
(مزموور) Mazmouro^٦ . و (سُلاق) عيد صعود السيد المسيح، من Souloqo
أي صعود^٧ . و (صلاة) من (صلوتو) Slouto^٨ . و (قس) (قسيس)
من (قشيشو) Qachicho^٩ . و (القوس) ويراد بها الصومعة ، من أصل
Kauchو ، بمعنى عزلة^{١٠} . و (ناقوس) من أصل noqucho^{١١} .
وهناك ألفاظ أخرى لها معان دينية ، لم تكن شائعة معروفة إلا بين النصارى،
لذلك لم أرَ حاجة الى الاشارة اليها ، ثم إن من الصعب البرهنة على أنها كانت
مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وبعض الألفاظ المذكورة معروف ، وقد ذكر في الحديث ، وهذا مما يدل
على شيوعه عند أهل الحجاز عند ظهور الاسلام ، وبعضه مما ورد في القرآن الكريم
من آيات تعرضت للنصرانية في ذلك العهد .

وباتصال العرب باليهود في الحجاز ، دخلت في العربية ألفاظ ومصطلحات
دينية ، عربت ، مثل : (آمين) من أصل (امن)^{١٢} ، و (اسرائيل)
و (اسرائين) من (يسراييل) (ي س ر ا ل)^{١٣} ، و (تابوت) (ت ب ه)^{١٤}

-
- ١ الجواليقي (ص ١٤٤) ، الاثار الباقية (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة
(ص ١٨١) .
 - ٢ الجواليقي (ص ١٨٧) ، غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
 - ٣ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
 - ٤ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
 - ٥ غرائب اللغة (ص ١٨٤) .
 - ٦ غرائب اللغة (ص ١٨٥) .
 - ٧ الجواليقي (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ١٨٨) .
 - ٨ غرائب اللغة (ص ١٩٣) .
 - ٩ غرائب اللغة (ص ٢٠١) .
 - ١٠ الجواليقي (ص ٢٧٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٢) .
 - ١١ الجواليقي (ص ٣٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٨) .
 - ١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
 - ١٣ الجواليقي (ص ١٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
 - ١٤ غرائب اللغة (ص ٢١١) .

بمعنى صندوق خشب و (تلمود)^١ و (تورا) من (تورا) بمعنى تعلميم
 وشريعة^٢ ، و (جهنم) من (جي هنم) ، بمعنى وادي هنم ، وهو جنوب
 أورشليم ، أي القدس ، وقد كثر فيه قبل الميلاد إحراق الأطفال تضحية لإله
 العمونيين^٣ . و (حبر) من (حبر) (ح ب ر) بمعنى (الرفيق) في الأصل ،
 ثم خصصت^٤ بعالم . و (اسرافيل) من (سرافيم) (س ر ف ي م) ، ملك
 من الملائكة الكبار^٥ . و (سبت) اسم يوم ، من (سبت) بمعنى يوم الراحة ،
 واستراح^٦ . و (سبط) ، قبيلة من قبائل اليهود الاثني عشر ، من (شبط)^٧ ،
 و (مدراس) ، بمعنى معهد تدرس فيه التوراة ، من (مدرش) ، (مدراش) ،
 أي بحث وشرح نص^٨ .

ولفظة (نبي) (نابي) Nabi المستعملة في عربيتنا من الألفاظ الواردة
 في التوراة ، وردت (٣٠٠) مرة في مواضع مختلفة منها^٩ . وترد في لغة بني لرم
 أيضاً ، حيث وردت على هذه الصورة : Nbiyo^{١٠} . وقد ذكر علماء اللغة أنها
 من المعربات^{١١} .

وأخذت العربية من العبرانية ألفاظاً قليلة ذات صلة بالحريف ، مثل (تابوت)
 بمعنى صندوق من (تبا) Teba ، ويراد بها معنى صندوق في العبرانية^{١٢} .
 و (فطيس) من (بطيش) Pattich بمعنى مطرقة^{١٣} . و (قدوم) من (قردم)
 (قردوم) qardom بمعنى فأس ، و (كرز) من (كرز) بمعنى فأس
 كبيرة^{١٤} .

-
- ١ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
 - ٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
 - ٣ الجواليقي (ص ١٠٧) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
 - ٤ ولفنسون ، اليهود في جزيرة العرب (ص ٢٠) .
 - ٥ الجواليقي (ص ٨) ، غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
 - ٦ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
 - ٧ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
 - ٨ غرائب اللغة (ص ٢١٣) .
 - ٩ Hastings, p. 767.
 - ١٠ غرائب اللغة (ص ٢٠٦) .
 - ١١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٠٥ / ١) .
 - ١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
 - ١٣ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
 - ١٤ المصدر نفسه .

وقد احترّف اليهود الحدادة والصياغة والنجارة في الحجاز ، وتكسبوا منها ، ورآهم الجاهليون ، وهم يعملون بآلاتهم ، فتعلموا منهم أسماء الآلات المذكورة وغيرها ، واستعملوها على النحو المذكور .

ويلاحظ ان الباحثين في المعربات من المستشرقين والشرقيين ، رجعوا أصول ألفاظ يهودية الى السريانية ، وهي يهودية في الأصل ، وقد أخذتها السريانية من العبرانية بواسطة النصرانية ، بدليل ورودها في اليهودية قبل ظهور النصرانية بزمن . أما المجوسية ، ديانة الفرس ، فلم تترك أثراً يذكر في العربية من ناحية المعربات ذات المعاني الدينية ، لقلة اتصال العرب بها ، وعدم اهتمام المجوس بنشر دينهم ، وقلة عددهم في جزيرة العرب . ولهذا كانت أكثر الألفاظ الدينية التي عرفها الجاهليون ، قد دخلت فيهم من اليهودية والنصرانية ، بسبب اتصال اليهودية والنصرانية بالجاهليين اتصالاً مباشراً .

ولفظة (المجوسية) نفسها هي من الألفاظ العربية ، فهي من أصل Magush في الفارسية القديمة ، و Mugh في الفارسية الحديثة ، و Maghos في اليونانية ، وقد انتقلت من الإرامية الى العربية^١ . وفي الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يمجسانه ، أي يعلمانه دين المجوسية »^٢ . وذكر أن اللفظة قد وردت في بيت شعر جاهليّ هو :

أحار أريكَ برقاً هبّ^٣ وهنا كنار مجوس تستعر استعاراً

يقال إن صدر البيت لامرئ القيس وعجزه للتوأم اليشكري ، « قال أبو عمرو ابن العلاء : كان امرؤ القيس مبعثاً عريضاً ينازع كل من قال إنه شاعر ، فنازع التوأم اليشكري ، فقال له : إن كنت شاعراً فليط أنصاف ما أقول وأجزها ، فقال : نعم ، فقال امرؤ القيس :

أصاح أريك برقاً هبّ وهنا

فقال التوأم :

كنار مجوس تستعر استعاراً

١ Shorter Ency., p. 298. غرائب اللغة (٢٦٩) .

٢ تاج العروس (٢٤٥/٤) ، (مجس) .

فقال أمرؤ القيس :
 أرقت له ونام أبو شريح
 فقال الترام :
 إذا ما قلتُ قد هداً استطارا »

الى آخر الشعر^١ . وإذا صح هذا التمليط ، تكون هذه اللفظة قد وردت فيه لأول مرة في شعر جاهلي .

ومن الألفاظ التي لها صلة بالمجوسية لفظة (موبد) و (موبدان) ، بمعنى الرئيس الديني للمجوس . من أصل (موبد) ، بمعنى كاهن ورجل دين عند الفرس القدماء^٢ .

وفي باب المأكولات والمشروبات وما يتعلق بهما ، نجد المعربات عن الفارسية أبرز وأظهر من المعربات المأخوذة من لغة بني لأم ، أو من لغة الروم واللغات الأعجمية الأخرى . ف (الباذق) ، وهو ضرب من الأشربة ، من أصل فارسي ، هو (باده) (باده) بمعنى خمر ، أي شراب مسكر^٣ . ولفظة (باطية) ويراد بها إناء زجاج للشراب ، من أصل (باديه) أي جرة^٤ . و (البالغاء) ، بمعنى الأكارع من أصل (پاها) بمعنى أرجل^٥ . و (الجلاب) أي مساء الورد ، من أصل (كُلبُ آب) ، و (كُلبُ) بمعنى ورد ، و (آب) بمعنى ماء^٦ . و (الجوزينج) (الجوزينق) من الحلاوات ، وتعمل من الجوز . من أصل (كوزينة)^٧ . و (الخريز) البطيخ ، من أصل (خربوزة)^٨ و (الخشكتان)^٩ ، و (الخشكار) ،

-
- ١ اللسان (٦ / ٢١٣ وما بعدها) ، (مجس) .
 - ٢ غرائب اللغة (٢٤٦) .
 - ٣ المعرب ، للجواليقي (ص ٨١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) ، الخفاجي ، شفاء الغليل وما دخل في كلام العرب من الدخيل .
 - ٤ المعرب (ص ٨٣) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) ، الدراسات الادبية ، ١٩٥٣ ، الجزء (٢) ، (ص ٩) ، التبادل اللغوي بين العربية والفارسية ، لجلال الدين همايوني ، السنة الثانية ١٩٦١ م ، (ص ٣٧٥) ، (صور من التعريب ونقل المعاني من الفارسية الى العربية) .
 - ٥ المعرب (ص ٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .
 - ٦ المعرب (ص ١٠٦) ، ابن حجر ، الفتح (١ / ٣١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .
 - ٧ المعرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .
 - ٨ المعرب (ص ١٣٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .
 - ٩ المعرب (ص ١٣٤) .

أي خبز مصنوع من قشر الحنطة والشعير ، من أصل (خشك) ، بمعنى يابس وآرد ، بمعنى طحين^١ . و (خوان) بمعنى مائدة^٢ ، و (دوق) بمعنى لبن استخراج زبده ، من أصل (دوغ) ، بمعنى لبن حامض^٣ . و (فالوذج) (الفالوذ) (الفالوذة) ، نوع من الحلواء ، من أصل (فالوده) (بولاد)^٤ . ويذكر أهل الأخبار : أن عبدالله بن جدعان كان يطعم العرب هذا الطعام ، فُدح^٥ . و (القند) ، السكر^٦ ، و (الكعك) ، من أصل (كاك)^٧ . و (اللوزينج) نوع من الحلواء ، من أصل (لوزينه)^٨ ، و (الأنبار) أهراء الطعام ، واحدها (تَبْر) ، و (أنابير) جمع الجمع^٩ ، من أصل (انباشتن) بمعنى خزن^{١٠} . و (الدرمك) ، وهو الدقيق الأبيض ، أي لسباب الدقيق ، و (الجردق) ، و (السميد)^{١١} .

و (السكباج) ، وهو لحم يطبخ بخسل ، من أصل (سرکه باجة) ، و (السكبينج) دواء ، وصمغ شجرة بفارس ، و (السكرجة) قصاع يؤكل فيها صغار^{١٢} ، و (الزيرباج) ، و (الاسفيداج) ، و (الطباهج) ، و (النفرينج) من ألوان الطبخ^{١٣} .

وسبب ذلك ان الفرس كانوا أرفع مستوى من بني لرم في الحياة الاجتماعية ، وأكثر تقدماً في الحياة البيئية منهم ، فتفننوا في المأكول والملبس، وتنوعوا في المطبخ وافتنوا في تنويع الأكل ، وأوجدوا لكل طعام اسماً ، لم تعرفه لغة بني لرم ،

-
- ١ غرائب اللغة (ص ٢٢٦) .
 - ٢ المغرب (ص ١٢٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٦) ، الخفاجي (ص ٨٧ وما بعدها) .
 - ٣ المغرب (ص ١٥٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
 - ٤ المغرب (ص ٢٤٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩) .
 - ٥ مجمع الامثال (٧٣/٢) .
 - ٦ المغرب (ص ٢٦١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .
 - ٧ المغرب (ص ٢٩٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٣) .
 - ٨ المغرب (ص ٢٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٤) .
 - ٩ المغرب (ص ٢٠) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
 - ١٠ غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
 - ١١ المزهر (٢٧٥/١) .
 - ١٢ تاج العروس (٥٩/٢) ، (سكبيج) .
 - ١٣ المزهر (٢٧٦/١) .

لأنهم لم يكونوا يعرفون تلك الأطعمة ، وباحتكاك العرب بالفرس وبني إرم الذين اقتبسوا من الفرس بعض تلك المأكولات تعلموا منهم أنواع الأطعمة ، وأخذوا منهم أسماءها أيضاً ، ودخلت على بعضها الصنعة ، لتحويلها وفق قواعد النطق العربي .

وينطبق ما قلته عن المعربات الفارسية في الأكل والمشروبات وما يتعلق بهما ، على المعربات من الفارسية في العطور والروائح والطيب وما يتعلق بها، وعلى بعض العوائد الاجتماعية ، ولا سيما بين العرب الذين كانوا على اتصال مباشر بالفرس . فقد تأثروا بحكم هذا الاتصال بهم ، واقتبسوا منهم بعض عوائدهم، مثل استخراج ماء الورد المسمى (جلاب) ، وهو (ماء الورد) للتطيب به^١ . وقد وردت لفظة (الجلب) ، ومعناها الورد في بيت شعر للأعشى^٢ . وكذلك (الجلسان) ، وقد ذكر ان (الجلسان) من (كلشان) (كلشن) ، أي ما ينثر من الورد على الحاضرين في العرس ، وذكر أنها الورد ، أو قبة يجعلون عليها الورد^٣ . و (القمقم) ، قنينة لماء الزهر أو نحوه (ققمة)^٤ . وتعني لفظة كوكوميون Koukkoumion ، وهي (ققسيم) وعاء من نحاس لتسخين الماء في اليونانية^٥ . ولعل إحدى اللغتين قد استعارتها من الأخرى . وقد رجح بعض علماء اللغة اللفظة الى الرومية ، أي اليونانية ، وذكر ان اللفظة وردت في بيت شعر لعنترة^٦ . و (مسك) من (مشك)^٧ . و (نافجة) وعاء المسك ، من أصل (نافه) من (ناف) بمعنى سرّة^٨ .

واستعارت العربية من الفارسية ألفاظاً من الألبسة والأنسجة والخياطة ، وذلك

-
- | | |
|---|---|
| ١ | المعرب (ص ١٠٦) . |
| ٢ | وشاهدنا الجلب والياسمين والمسمعات بقصاها .
المعرب (ص ١١٥) . |
| ٣ | المعرب (ص ١٠٥ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) . |
| ٤ | المعرب (ص ٢٦٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) . |
| ٥ | غرائب اللغة (ص ٢٦٦) . |
| ٦ | وكان ربا أو كحيفا معقدا حش الوقود به جوانب قمقم
المعرب (ص ٢٦٠) . |
| ٧ | المعرب (ص ٣٢٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) . |
| ٨ | المعرب (ص ٣٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٦) . |

مثل (ابريسم) وهي من أصل (أبريشم)^١ و (استبرق) من أصل (استبرك) ،
 أي ثوب حرير مطرز بالذهب^٢ . وقد ذكر علماء اللغة أنها من (استفره)
 و (استروه)^٣ . و (يركان) (برنكان) ، كساء ، من (برنيسان)^٤ .
 و (تخريص) (دخريص) من أصل (تيريز)^٥ ، وورد أن (البنيقة) معربة
 كذلك من أصل (بنيك) في معنى (التخريص) و (الدخريص)^٦ . و (جريان)
 ويراد بها جيب القميص من أصل (كريان)^٧ ، و (الجوالق) ، من أصل
 (كوال) (جوال) ، ومعناها عدل كبير منسوج من صوف أو شعر^٨ .
 و (الخسرواني) ، وهو الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، وهو منسوب الى الأكاسرة
 أي الملوك^٩ . و (الدخدار) وهو الثوب ، من أصل (تخت دار)^{١٠} .
 و (الديباج) من أصل (ديوباف) أي نساجة الجن^{١١} ، و (السبيج) ،
 وهو قيص بلا كمين ولا جيب ، من أصل (شبي) ، أي ليلي^{١٢} . و (سربال) ،
 من أصل (سربال)^{١٣} . و (سروال)^{١٤} . و (الشوذر) الملحفة والإزار ،
 من أصل (جادر)^{١٥} . و (الطيلسان) من (طيلسان) (تالسان)^{١٦} .
 و (الفرند) ، الحرير من (برند)^{١٧} . و (الكرياس)^{١٨} ، ثوب خشن مسن
 (كرباس)^{١٨} .

-
- ١ غرائب اللغة (ص ٢١٦) ، المغرب (ص ٢٧) .
 - ٢ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
 - ٣ المغرب (ص ١٥) .
 - ٤ المغرب (ص ٥٦) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .
 - ٥ المغرب (ص ٨٧ ، ١٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٢١) .
 - ٦ المغرب (١٤٣) .
 - ٧ المغرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٢) .
 - ٨ المغرب (ص ١١٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .
 - ٩ المغرب (ص ١٣٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .
 - ١٠ المغرب (ص ١٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
 - ١١ المغرب (ص ١٤٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
 - ١٢ المغرب (ص ١٨٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
 - ١٣ غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
 - ١٤ المغرب (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٤) .
 - ١٥ المغرب (ص ٢٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٧) .
 - ١٦ المغرب (ص ٢٢٧) ، الجمهرة ، لابن دريد (٤١٣/٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩) .
 - ١٧ المغرب (ص ٢٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩ وما بعدها) .
 - ١٨ المغرب (ص ٢٩٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .

وقد عرف الجاهليون ألقاب بعض القادة العسكريين والاداريين في الانباطوريتين اليونانية والفارسية ، فأدخلوها في العربية ، لأنها ألقاب رسمية نعت بها أولئك الموظفون الكبار ، وعرفوا بعض الرتب الكنسية كذلك . فما دخل الى العربية من اليونانية واستعمل عند الجاهليين لفظة (بطريق) ، من أصل Patrikios^١ . وقد وردت في بعض الرسائل المنسوبة الى الغساسنة، ويراد بها درجة قائد في الانباطورية البيزنطية . ولفظة (أسقف) ، وقد ورد في كتب السير : ان وفد نجران حين قدم على الرسول ، كان يتألف من رؤساء المدينة أصحاب الحل والعقد ، ويلقبون بـ (السيد) و (العاقب) و (الأسقف) . والسيد عندهم صاحب رحلتهم ، والعاقب أميرهم وصاحب مشورتهم الذي يصدر عن رأيه ، والأسقف حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم^٢ . ولفظة (أسقف) هذه من أصل يوناني هو Episkopos^٣ .

وأما (قيصر) التي يراد بها في العربية (انباطور) الروم ، أي ملكهم ، فإنها من أصل لاتيني هو (سيسر) Caesar . وترد في كتب السير في معرض الكلام على الكتب التي أرسلها الرسول الى الروم والفرس والحبيشة وبعض الأمراء^٤ .

ومن المصطلحات المأخوذة من الفارسية في هذا الباب ، (الأسوار) ، وهو الرامي ، وقيل الفارس، وقائد الفرسان^٥ ، من أصل (أسب سوار) ، و (اسب) الحصان ، و (سوار) على ظهر أي راكب ، ومعناها راكب الحصان أي فارس^٦ ، وتجمع (أسوار) على (أساورة) . وترد في الكتب أحياناً مضافة (أساورة الفرس) ، وتجمع على (أساور) و (أساورة) أيضاً ، وقد وردا جميعاً في الشعر^٧ .

وأما (الأشائب) ، ومفردها (أشابة) ، فعنها الأخلاط من الناس من

-
- ١ غرائب اللغة (ص ٢٥٥) .
 - ٢ طبقات ابن سعد (٢٥٧/١) .
 - ٣ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
 - ٤ طبقات ابن سعد (٢٥٩/١) .
 - ٥ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) ، الجمهرة (٢١٥/٢) ، اللسان (٥١/٧) .
 - ٦ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
 - ٧ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) .

أصل (آشوب) . وذكر أنها عربية خالصة، من (أشب الشيء) بمعنى خلطه^١. وترد لفظة (أنبار) و (الأنبار) ، وتعني أهراء الطعام ويقال للواحد (نبر) أيضاً وأما (الأنابير) جمع الجمع . وقد اشتهر موضع (الأنبار) على نهر الفرات على مقربة من الفلوجة ، وكان مأهولاً بالعرب عند ظهور الإسلام ، وقد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب أن بعض أهل الحجاز ينسب أخذ أهل مكة الكتابة الى قوم منهم ذكروا أنهم تعلموها من أهل الأنبار^٢ .

و (الإيوان) في العربية ، الرواق . وهو مكان متسع من بيت تحيط به ثلاثة حيطان ، من أصل (أيوان) eyvan^٣ . وأما (الدهقان) ، فحاكم إقليم ، من (ده) بمعنى ضيعة و (خان) بمعنى رئيس قبيلة ، وذلك في الفارسية القديمة . وقد وردت اللفظة في بيت شعر للأعشى . وتجمع على (دهاقين)^٤. وأما (كسرى) ، فملك من ملوك الفرس ، وهو (خسرو) Khosrow في الفارسية . ولكن الجاهليين جعلوا اللفظة لقباً للملك إيران ، يقابل (شاه) أي الملك ، وصارت عندهم مثل : (قيصر) للروم ، وتُبعَّ لليمن ، والنجاشي للحبشة^٥ . وأما (المرزبان) ، فالرئيس من الفرس ، وتفسيرها (حافظ الحد) في مقابل حاكم ووالي ولاية ، وتجمع على (المرازبة)^٦ .

وأما لفظة (الهريذ) وتجمع على (الهرايدة) ، فعادم النار عند المجوس . وقيل: رئيس خدام النار الذين يصلون بالمجوس ، وقد تكلمت بها العرب قديماً . وقد وردت هذه اللفظة في بيت شعر لامرئ القيس^٧ . وأما (موبد) و (موبدان) فحاكم المجوس ، بمثابة القاضي عند المسلمين ، من (موبد) وهو الكاهن ورجل دين عند المجوس^٨ .

-
- ١ الجواليقي (ص ٢٧) . غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
 - ٢ الجواليقي (ص ٢٠ ، ٢٩) . غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
 - ٣ الجواليقي (ص ١٩) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
 - ٤ الجواليقي (ص ١٤٦) ، اللسان (٢١/١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
 - ٥ الجواليقي (٢٧١ ، ٢٨٢) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .
 - ٦ الجواليقي (ص ٣١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .
 - ٧ الجواليقي (ص ٣٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٨) .
 - ٨ غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

أما أسماء النقود ، فإنها معربات يرجع أصلها الى الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية . فقد كان الجاهليون يتعاملون مع الفرس والأرضين الخاضعة للامبراطورية الرومية ، ولهذا تعاملوا بنقود هاتين الامبراطوريتين . وهي نقود مضروبة من المعادن . وتعاملوا بها في بلادهم أيضاً كما نتعامل نحن بالنقود الأجنبية . ف (النمّي) مثلاً ، هي فلوس رصاص كانت تتخذ أيام ملك بني المنذر ، يتعاملون بها في الحيرة ، هي من أصل رومي ، أي يوناني ، هو noummiyon . وقد وردت في بيت للنابغة :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمّي سفسيرا^١

وقد نسب هذا البيت لأوس بن حجر أيضاً^٢ .

فيظهر من ذلك ان (بني المنذر) كانوا قد أخذوا اللفظة من اليونانية ، أي من نقود نحاس ضربها الروم ، فضربوها هم في الحيرة ، وتعامل بها الناس . وأما (الدينار) ، وهو نقد كان معروفاً متداولاً بين الجاهليين ، مستعملاً في أسواق مكة وبقية مواضع الحجاز وجزيرة العرب عند ظهور الاسلام . وقد ذكر في القرآن الكريم^٣ ، فإنه نقد روماني يساوي عشرة دراهم ، ويعرف بـ denarius في اللاتينية^٤ .

وأما (الدرهم) فاسم نقد يوناني ، يسمى دراخمي dhrahmi في اليونانية، وقد شاع استعماله إذ ذاك . وقد وردت التسمية في بيت شعر هو :

وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم^٥

ويفيد هذا البيت أن الحكومة كانت تأخذ إتاوة من الأسواق من التجار والباعة، وأن ما يباع يدفع عنه مكس ، قدره درهم^٦ .

-
- ١ الجواليقي (ص ١٨٥) ، اللسان (٣٤٣/١٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
 - ٢ الجواليقي (ص ١٨٥ ، ٣٣٠) .
 - ٣ آل عمران ، الآية ٧٥ « ومنهم من أن تأمنه بدينار » .
 - ٤ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) ، « وقيل : أصله بالفارسية دين آراي : الشريعة جاءت به » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٧١) .
 - ٥ الجواليقي (ص ١٤٨) .
 - ٦ « الدرهم الفضة المطبوعة المتعامل بها » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٦٨) .

ولفظة (مكسو) ، هي أيضاً من الألفاظ العربية ، عربت من أصل
(مكسو) Makso في لغة بني إرم^١ .

و (الدائق) فقد أخذت تسميته من الفارسية ، من (دانك)^٢ . وقد بقي
مستعملاً في الاسلام . وقد عرف الخليفة (أبو جعفر المنصور) ب (الدوائقي)
نسبة الى هذا النقد .

وأما (الفليس) وتجمع على (فلوس) ، فإنه نقد من نحاس ، وأصله في
اليونانية (فولس) follis^٣ . وقد عبر عنه بمعنى نقود أيضاً ، ف قيل في العامية
(فلوس) ، وقصد بها نقود .

ومن العربات المستعملة في تقويم النقد وفحصه ، لفظة (شقل) بمعنى الوزن^٤ ،
أي وزن النقد لمعرفة مقدار معدنه المؤلف منه . ولفظة (قسطار) ، ومعناها ناقد
الدراهم ، أي الناقد الماهر العارف بالنقد ، من أصل لاتيني هو quaestor^٥ .

وتظهر هذه العربات ان أهل الحجاز ونجد والعرب الشماليين كانوا قد استعملوا
النقد البيزنطي والساساني في أسواقهم وفي تجارتهم ، وكانوا عالة على الأعاجم في
استعمال النقد . وذلك مما يدل على ان تعاملهم التجاري مع الانباطوريتين كان
وثيقاً . وقد بقيت هذه النقود الأعجمية مستعملة في الاسلام كذلك، وبقيت أسماءها
حية حتى بعد تعريب النقد ، ولا يزال اسم الدينار والدرهم والفلس الى هذا
اليوم .

أما العرب الجنوبيون ، فكان لهم نقد خاص بهم . تحدثت عنه في الجزء الثامن
من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام . وقد ذكرت أن بعض العلماء رجح
تأريخ أقدم نقد عربي جنوبي عثر عليه سنة (٤٠٠) قبل الميلاد^٦ . ويظهر أن
أهل الحجاز لم يتعاملوا به كثيراً ، بدليل عدم وجود ذكر له في المؤلفات الاسلامية ،
وفي الأخبار الواردة عن أيام الرسول . وقد ذكرت أن أسماء تلك النقود أسماء

- ١ غرائب اللغة (ص ٢٠٦) .
- ٢ الجواليقي (ص ١٤٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
- ٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٣) .
- ٤ غرائب اللغة (ص ١٩١) .
- ٥ الجواليقي (ص ٢٦٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
- ٦ الجزء الثامن (ص ٢٠٠ وما بعدها) .

عربية جنوبية لا صلة لها بأسماء النقود التي تحدثت عنها ، ومن تلك الأسماء :
 (بلط) ويجمع على (بلطات) ، وهو اسم نقد من ذهب . و (خبصت)
 (خبصة) ، نقد من نحاس ، و (رضى) ، قيل إنها اسم نقد ، وقيل لأنها
 صفة للنقد . بمعنى رضية وصحيحة غير مزيفة ولا منقوصة ، لأن النقد كان على
 أساس الوزن والنوع في ذلك العهد . وذكرت أيضاً بعض الألفاظ التي استعمالوها
 في الصيرفة وفي نقد النقود .

ومن الألفاظ اللاتينية التي دخلت الى العربية (لبرجد) ، وهو ثوب مزدان
 بالذهب ، وثوب غليظ مخطط من أصل Paragauda^١ . و (برذون) من أصل
 burdo و Burdonis^٢ ، و (دينار) من أصل denarius ، وهو نقد من
 المعدن^٣ ، و (سجل) وقد تحدثت عنها^٤ و (سجلاط) من أصل (سجلاطس)
 Sigillatum ، ثياب كتان موشاة ، وكان وشيها خاتم وتزدان بصور صغيرة^٥ .
 و (سجنجل) ، وتعني المرأة ، أو سبيكة فضة مصقولة ، استعمال استعمال
 المرأة ، من أصل Sexaangulus التي تعني (المسدس الزوايا) في اللاتينية . وقد
 وردت في بيت لامرئ القيس^٦ . و (الصراط) ، بمعنى الطريق ، من أصل لاتيني
 هو Strata بمعنى طريق كبير مبلط^٧ . وقد عرف الرومان براعتهم في شق الطرق
 العسكرية لاستعمالها في التجارة وفي الأغراض العسكرية . و (الصاقور) الفأس
 لكسر الحجارة ، من أصل لاتيني هو Securis^٨ .

ويظهر أثر الأخذ من اليونانية واللاتينية والفارسية والارمية في المكاييل والموازين
 كذلك ، وذلك عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشام . أما عرب الجنوب
 فقد كانت لهم أسماء للمكاييل والموازين خاصة بهم ، اختلفت عن الأسماء المستعملة
 عند العرب الشماليين المذكورين وذلك كما تحدثت عنها في الموضوع الخاص بالمكاييل

-
- ١ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
 - ٢ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
 - ٣ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
 - ٤ « والسجيل ، حجر وطني مختلط ، وأصله فيما قيل فارسي » ، المفردات في غريب القرآن (ص ٢٢٣) .
 - ٥ الجواليقي (ص ١٨٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
 - ٦ الجواليقي (ص ١٧٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
 - ٧ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
 - ٨ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .

والموازين عند الجاهليين في الجزء الثامن من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام^١.
ومن هذه المعربات (المُدّ) ، وهو نوع مكيال للحبوب ، وهو من أصل
لاتيني هو Modius^٢ و (الجريب) ، من أصل لإرمي هو (جريبو) Gribo^٣.
و (الرطل) من أصل يوناني هو : Litra^٤ ، و (الأوقية) من أصل يوناني
هو uncia, ounguiya^٥ ، و (مثقال) من أصل matqolo ، وهو وزن في
الإرمية^٦ . و (قيراط) ، وهو جزء من أربعة وعشرين من أجزاء شيء ،
أو حبة واحدة من أربعة وعشرين حبة . وكان القدماء يزنون بالحب . واللفظة
من أصل يوناني هو Keration^٧ . و (قنطار) ، وهو مئة رطل ، من أصل
لاتيني هو Centenarium Pondus^٨ . و (الكرو) ، وهو ستة أوقار حمار ، وهو
مكيال لأهل العراق ، وقد ورد ذكره في الحديث ، هو (كرو) Kouro في
لغة بني إرم^٩ . وغير ذلك من أسماء ذكرتها في الجزء الثامن من هذا الكتاب .
ولا حاجة بنا الى إعادة ذكرها .

وأخذت العربية من اللغة (السنسكريتية) بعض الألفاظ الخاصة بالمحاصيل
الخاصة بالهند ، مثل القنفل وبعض الأسماء المتعلقة بالتوابل والعقاقير والأطياب
والجواهر^{١٠} .

وقد أشار علماء اللغة الى ألفاظ شائعة على الألسنة ، لكنها أعجمية الأصل
تأتي في نوع المعرب . ذكر (الثعالبي) أمثلة منها في كتابه (فقه اللغة) ، وقال
عنها أنها : « أسماء فارسيته منسية وعربيته محكية مستعملة ، هي : الكف ،

-
- ١ (الصفحة ٤١٠ وما بعدها) .
 - ٢ غرائب اللغة (ص ٢٨٠) .
 - ٣ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
 - ٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٨) .
 - ٥ العرب قبل الاسلام (٤١٤/٨) ، Ency. Islam, II, p. 1025 .
 - ٦ غرائب اللغة (ص ٢٥٤) .
 - ٧ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
 - ٨ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) .
 - ٩ غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
 - ١٠ العرب قبل الاسلام (٤١٩/٨) .
 - ١١ غرائب اللغة (ص ٢٠٣) .
 - ١٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٢٠٥/١) .

الساق ، الفرش ، البزّاز ، الوزّان ، الكيّال ، المسّاح ، البيّاع ، الدلال ، الصرّاف ، البقال ، الجمّال ، الحمّال ، القصاب ، البيطار ، الرائص ، الطراز ، الخراط ، الخياط ، القزّاز ، الأمير ، الخليفة ، الوزير ، الحاجب ، القاضي ، صاحب البريد ، صاحب الخبر ، السقاء ، السّاقّي ، الشّراب ، الدخل ، الخرج ، الحلال ، الحرام » الى غير ذلك من ألفاظ تجدها في كتابه وفي كتب اللغة التي نقلت منه^١ .

وفي بعض الذي ذكره ، ما هو فارسي حقاً ، أو من مصدر أعجمي آخر ، لم يعرفه (الثعالبي) ، لأنه لم يعرف من اللغات الأعجمية غير الفارسية ، فنسب أصل تلك الألفاظ إليها ، ولكن البعض الباقي هو عربي ، ما في أصله العربي من شك ، ولا يمكن أن يكون من المعربات .

ونجد في المعاجم وفي كتب اللغة كلاماً عن هذه المعربات، ففي كتاب (المزهر) وكتب اللغة المعتبرة صفحات نص فيها على الألفاظ المعربة من مختلف اللغات^٢ . فلا أرى بي حاجة هنا الى ذكر تفاصيل أخرى عن الألفاظ المعربة بتفصيل كل ما نص عليه العلماء من المعربات . ولكني أود أن أبين ان علماء اللغة لم يكفوا على علم باللغات الأعجمية ، ولذلك لم يتمكنوا من رجوع المعربات الى أصولها الحقيقية ، فأخطأوا في ذكر الأصول . ونظراً الى ان فيهم من كان يتقن الفارسية فقد رجع أصول كثير من الألفاظ الى أصل فارسي ، لأنه وجد أن الفرس نطقوا بها ، ولم يعلموا أنهم أخذوها هم بدورهم من غيرهم ، فصارت من لغة الفرس ، أو أنهم وجدوا بعض الألفاظ قريبة من أوزان الفارسية للكلمات ، فظنوا أنها فارسية ، مع انها من أصل آخر . وفعل بعض منهم ذلك عصبية منهم الى الفارسية لأنهم من أصل فارسي ، فتمحلوا لذلك تكثيراً لسواد المعربات من لغة الفرس وتعصباً لهم^٣ .

وفي شعر الأعشى معربات عديدة مقتبسة من الفارسية ، قد يكون أخذها من عرب الحيرة وبقية عرب العراق ، وقد يكون أخذها من الفرس مباشرة لاتصاله

-
- ١ المزهر (١٢٣/١) .
 - ٢ المزهر (٢٧٥/١) وما بعدها .
 - ٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٠٦/١) .

واختلاطه بهم في العراق . واقتبسها إما ليحكي عما شاهده ورآه في العراق ، فاستعمل الألفاظ الفارسية الشائعة هناك ، وإما أن يكون قد تعمد إدخالها في شعره لثري الناس أنه حاذق بثقافة الفرس واقف على حضارتهم ولغتهم ، كالذي يفعله بعض من يدرس في بلاد الغرب من استعماله ألفاظاً أعجمية في لغته ليلمح للناس بأنه قد تثقف بثقافة الأجانب ، وتلك في نظره ميزة يفخر بها على الناس .

وقد زعم أن الأعشى رحل الى بلاد بعيدة ، فبلغ عمان وحصن وأورشليم وزار الحبشة وأرض النبيط وأرض العجم ، وقد ذكر ذلك في بيتين من الشعر^١ . والى زيارته هذه للعراق ولأرض العجم ينسب أهل الأخبار ورود الألفاظ الفارسية في شعره .

وفي بعض المعجمات وكتب اللغة مثل لسان العرب والمغرب للجواليقي ، أبيات للأعشى يرد فيها وصف لأحوال الفرس وعرب العراق ، وقد استعمل فيها ألفاظاً فارسية لها مناسبة وصلة بذلك الوصف . منها ما يتعلق بالملبس ، ومنها ما يتعلق بالأشربة والخمور والأفراح ، ومنها ما يتعلق بالمناسبات مثل الغناء والأعياد^٢ .

وشاعر آخر نجد في شعره معربات فارسية ، هو (عدي بن زيد العبادي) . وهو من أهل الحيرة ، المقربين الى ملوكها والى الفرس ، الحاذقين بالعربية وبلغة الفرس . وقد كان كاتباً باللغتين ، كما كان أبوه بليغاً باللسانين ، وتولى رئاسة ديوان العرب عند الأكاسرة . وهو نصراني ، ولهذا استعمل في شعره ألفاظاً نصرانية اقتبست من السريانية ، وأشار بحكم نصرانيته الى عادات نصرانية ، كما كان حضرياً مترفاً غنياً أدخل الى بيته وسائل الترف والراحة المعروفة في ذلك اليوم ، ولهذا فإن لجمع شعره جمعاً تاماً ونقده وتحليله واستخراج صحيحه من منحوه أهمية كبيرة في اعطاء رأي عن الحياة الفكرية والثقافية لعرب العراق قبيل الاسلام .

وبعد ، فإن اللغة التي بحثت عن وجود المعربات فيها ، هي اللغة العربية التي

عمان فحمص فأورشليم
وأرض النبيط وأرض العجم

وطوفت للمال آفاه
أتيت النجاشي في داره

١ راجع ديوان الاعشى ، المغرب (ص ٣٢) .

٢ المغرب (ص ١٦ ، ١٨ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧٩) ومواضع أخرى .

نزل القرآن بها . أما اللهجات والألسنة العربية الجنوبية ، فإن أثر هذه المعربات فيها كان قليلاً ، ونجد في كتاباتها ألفاظاً عربية جنوبية ، مكان تلك المعربات . ومعنى هذا بُعد تلك اللهجات عن المؤثرات الأعجمية الشمالية . وسبب ذلك رقي المتكلمين بها ، وتقدمهم في الحضارة بالقياس الى بقية سكان جزيرة العرب والى ابتكارهم أنفسهم لكثير من الأشياء ، فكان من الطبيعي أن تكون أسماؤها بلبسة الصانعين لها .

ولدي ملاحظة ، هي ان وجود المعربات في العربية الحجازية ، يدل دلالة صريحة واضحة ، على ان المتكلمين بها كانوا قد تأثروا بالحضارات الشمالية أكثر من تأثرهم باخوانهم العرب الجنوبيين ، وان اتصالهم الفكري كان بالشمال أكثر منه بالجنوب ، ولا يقتصر هذا التأثير على المعربات فقط، بل يشمل كل المؤثرات الثقافية الأخرى ، كالذي رأيناه في مواضع متعددة من الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب . فكاننا أمام ثقافتين مختلفتين وشعبين متباينين ، بالرغم من اتصال حدود الحجاز باليمن ، وقرب المسافة بينهما ، حتى اللغة نجد بوناً شاسعاً بينها وبين اللغات العربية الجنوبية ، وهذا ما حمل بعض العلماء على القول : ما لغة حير بلغتنا ، ولا لسانهم بلساننا ، ففرق بين اللسانين .

أما (أمية بن أبي الصلت) فقد وردت في شعره معربات من أصل سرياني في الغالب ، يظهر أنه أخذها من المنايع النصرانية التي قيل إنه وقف عليها . فقد ذكر أنه كان قد قرأ كتب أهل الكتاب ، ووقف على أخبارهم وعقائدهم ، وإن اتصاله بهم أثر في رأيه الذي كونه لنفسه في الأديان . وأرى أن من اللازم توجيه العناية لدراسة ما تبقى من شعره للوقوف على أصوله ، وعلى درجة تأثره بالتيارات الفكرية والآراء الدينية لأهل الكتاب ، وعلى الألفاظ المعربة عن السريانية أو غيرها التي ترد في شعر هذا الشاعر ، وذلك بعد التأكد من صحة الشعر .

ومن المعربات الواردة في شعر (أمية) لفظة (تلاميذ) جمع تلميذ ، وذلك في هذا الشعر المنسوب اليه :

والأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقامتنا وفيها نولد
وبها تلاميذ على قدفاتها حبسوا قياماً فالفرائص ترعد

وفي هذا الشعر :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم ينتقص علمه جهل ولا هرم
لا كشفت مرة عنا ولا بليت فيهما تلاميذ في أفقائهم دغم

وذكر أن (المتلمذ) الواردة في شعر ينسب له أيضاً ، بمعنى متلمذ ، وأن
لفظة (التلاميذ) قد ترخم في الشعر على (تلام) ، كما جاء في شعر (الطرماح) ،
و (غيلان بن سلمة) الثقفي ، وهو من الشعراء المخضرمين^١ . ووردت لفظة
(التلاميذ) في شعر ليبيد ، في هذا البيت :

فالماء يجلو متونن كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا^٢

وقد ذكر علماء اللغة أن التلاميذ : غلمان الصاغة ، وهي فارسية^٣ .

معرفة المعرب :

قال علماء العربية : تعرف عجمة الإسم بوجوه :

- (١) النقل بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية .
- (٢) خروجه عن أوزان الأسماء العربية نحو لإبريسم ، فإن مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربي .
- (٣) أن يكون أوله نون ثم راء نحو نرجس ، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية .
- (٤) أن يكون آخره زاي بعد الدال ، نحو مهندز ، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية .
- (٥) أن يجتمع فيه الصاد والجيم ، نحو الصولجان والجص .

١ رسالة التلميذ ، للبغدادى ، نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) (ص ٢٢٢ وما بعدها) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٣١) ، القصيدة رقم ٤ ، البيت ٢٠ .
٣ شرح ديوان لبيد (٣١) ، رسالة التلميذ (٢٢١) .

٦) أن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق، والجردقة، والجرموق ، والجوسق،
والجلاهدق ، وجلنبق .

٧) أن يكون خماسياً أو رباعياً عارياً عن حروف الذلاقة ، وهي : الباء ،
والراء ، والفاء ، واللام ، والميم ، والنون . فإنه متى كان عريباً ، فلا
بد أن يكون فيه شيء منها . نحو سفرجل ، وقِرطَعْب ، وجحمرش .

هذا وقد تتبع بعض علماء العربية كلام العرب ، فوجدوا بعض حالات إذا
اجتمعت فيها حروف معينة دلت على أصل أعجمي ، من ذلك قولهم :

١) الجيم والتاء لا يجتمعان في كلمة من غير حرف ذي لقي ، ولهذا ليس
الجبب من صميم العربية .

٢) الجيم والطاء لا يجتمعان في كلمة عربية ، ولهذا كان الطاجن والطيغن
مولدين ، لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي .

٣) لا يجتمع الصاد والطاء في كلمة من لغتهم ، أما الصراط ، فصاده من
السين .

٤) ينذر اجتماع الراء مع اللام إلا في ألفاظ محصورة : كورال ونحوه .

٥) قال (البطليوسي) : لا يوجد في كلام العرب دال بعدها ذال إلا قليل ،
ولذلك أبى البصريون أن يقولوا بغذاذ .

٦) ليس في كلام العرب شين بعد لام في كلمة عربية محضة ، الشينات كلها
في كلام العرب قبل اللامات .

أقسام الأسماء الأعجمية :

قال أبو حيان في الارتشاف : الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام : قسم
غيرته العرب ، وألحقته بكلامها فحكم أبنيتها في اعتبار الأصل والزائد والوزن حكم

١ المزمهر (٢٦٨/٢ وما بعدها) ، الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٠٢/١ وما
بعدها) .

أبنية الأسماء العربية الوضع ، نحو درهم وبهرج . وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها ، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله ، نحو آجر وسفير . وقسم تركوه غير مغير ، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يعد منها ، وما ألحقوه بها عد منها ؛ مثال الأول خراسان ، لا يثبت به فعّالان ، ومثال الثاني : حُرِّمَ ألحق بسلم ، وكُرِّمَ ألحق بقمقم .

إبدال الحروف :

وهناك حروف لا تتكلم بها العرب إلاّ ضرورة ، فإذا اضطروا إليها حوّلوها عند التكلم بها الى أقرب الحروف الى مخارجها ، وذلك كالحرف الذي بين الباء والفاء مثل (بور) إذا اضطروا قالوا (فور) . لأن (بور) ليس من كلام العرب . وحرف (ب) حرف غير عربي . وقد يحولون الـ (پ) الى (ب) ، كما في (سابور) ، وأصله (شاپور) .

وقد يحول حرف الـ (پ) الى (P) الى (ف) عند تحويل الأعلام الأجنبية الى عربية . مثل Platon ، اسم الفيلسوف اليوناني ، (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م) الذي حوّل الى (افلاطون) . وذلك بتحويل حرف (الباء) الى (ف) ، وبتحويل حرف (التاء) الى (طاء) . وقد اتبع العربون قاعدة تحويل (التاء) الواردة في الأعلام الأعجمية الى حرف (طاء) في الغالب ، فحول Aristotèlès (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) الى (أرسطوطاليس) . و Plotinos الاسكندراني (٢٠٥ - ٢٧٠ م) ، الى (فلوطيين) . ولو زالت هذه الطريقة معروفة ف (تهران) عاصمة ايران ، هي (طهران) .

والعرب يعربون الشين سيناً ، فيقولون : نيسابور ، وهي نيشابور . وقد أبدلوا بالإضافة الى حرف (الشين) حرف (الباء) (باء) . فالأصل (نيشابور) ، ومثل ذلك : (سابور) ، فالأصل هو (شاپور) .

« وقال بعضهم : الحروف التي يكون فيها البديل في المعرب عشرة : خمسة يُطرد إبدالها ، وهي : الكاف ، والجيم ، والقاف ، والباء ، والفاء . وخمسة

١ المزهر (٢٦٩/١ وما بعدها) .

لا يطرد إبدالها : وهي : السين ، والشين ، والعين ، واللام ، والزاي .
فالبديل المطرد : هو في كل حرف ليس من حروفهم كقولهم : كُرْبِج ،
الكاف فيه بدل من حرف بين الكاف والجيم ، فأبدلوا فيه الكاف ؛ أو
القاف نحو قريق . أو الجيم نحو جَوْرَب ، وكذلك فِرند هو بين الباء والقاف
فرّة تبدل منها الباء ومرة تبدل منها القاف . وأما ما لا يطرد فيه الإبدال ،
فكل حرف وافق الحروف العربية كقولهم اسماعيل أبدلوا السين من الشين ، والعين
من الهمزة ، وأصله إشمائيل . وكذلك قفشليل أبدلوا الشين من الجيم واللام من
الزاي ، والأصل قفجليز . وأما القاف في أوله فتبدل من الحرف الذي بين
الكاف والجيم^١ .

الفصل الثاني والاربعون بعد المئة

النثر

النثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقيد بالوزن والقافية ، وهو الجزء المقابل للشعر ، من أجزاء الكلام . وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار وعلى التعبير عن الرأي ، وعلى الإفصاح عن علم ومعرفة ، لكونه كلاماً مرسلًا حرًا لا يتقيد بقيود ، خالياً من الوزن والقافية ومن المحافظة على القوالب ، إلا انه دون الشعر في التأثير في النفوس وفي اللعب بالعواطف ، لما في الشعر من سحر الوزن والقافية ، والإنشاد بأنغام متباينة مؤثرة ، لا سيما اذا ما اقترن بعزف على آلات طرب . ولوجود القافية والوزن في الشعر ، ولكونه أبياتاً ، سهل حفظه، وصار من الممكن تخزينه في الذاكرة أمدأ طويلاً ، ومن هنا امتاز على النثر ، الذي لا يمكن حفظه بسهولة ، ولا تخزينه في الذاكرة ، لعدم وجود مقومات التخزين المذكورة فيه . والنثر الذي نقصده ونعنيه ، هو النثر الذي يبحث عنه مؤرخ الآداب، لكونه قطعة فنية ، تعبر عن عاطفة انسانية ، وعن مظاهر الجمال والذوق والتأثير في النفوس ، فيه صياغة وفن في حيك القول ، وتفنن في طرق العرض ، وإغراء في تنميق الكلم ودبج الكلمات ، وجلال وطراوة وسحر وبيان ، فهو كلام عال لا يشبه كلام العامة ، ولا مما يتخاطب به الناس ، ولا مما يتعامل به في التجارة والمكسب أو في الدوائر ، وانما هو من قبيل كتب الأدب ، ومن قبيل الأمثال والخطابة والمراسلات الأدبية وما شاكل ذلك من وجوه . ولهذا ، نستبعد من هذا النثر ، ما وصل اليها من نصوص جاهلية ، لأنها كتبت في أغراض أخرى ،

كُتبت في تقديم نذور ، وفي معاملات : من بيع وشراء ، وتثبيت ملك ، أو تحديد حدود ، أو في قوانين وأوامر ، ولم تكتب في أغراض أدبية خالصة .

وبين أيدينا خطب طويلة ومتوسطة وقصيرة ، نسبها الرواة الى خطباء جاهليين ، زعموا أنهم كانوا في أيامهم آية في الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأساطير وقصص زعم أهل الأخبار أنها أخبار صحيحة وروايات مروية ، وأصول مناقرات ومفاخرات ومعاتبات ومشاتمات ، زعموا أنها جرت في الجاهلية ، وانتقلت أصولها بنصها وفصها وحروفها وكلمها من رواها الى الإسلاميين ، فدوتت في كتبهم ، كما رووا حكماً وأمثالاً وأقوالاً ، زعموا أنها للحكماء من أهل الجاهلية حفظها الناس حفظاً ، ورووها رواية رجلاً عن رجل ، وجيلاً عن جيل ، حتى وصلت مرحلة التدوين . وكل هذا المسجل الذي نتحدث عنه ، هو من مدونات أهل الإسلام ، ليس فيه من مدونات أهل الجاهلية أي شيء .

وبين هذا النثر ، خطب منمقة مزوقة ، نسبت الى ملوك وسادات العرب البائدة ، الذين بادوا قبل الإسلام بعهد طويل ، ومات معهم أدبهم بالطبع ، وخطب نسبت الى التباينة ، وقد هلكوا أيضاً قبل الاسلام ، وكلام نسب الى أنبياء جاهليين ، والى الجن أيضاً ، رواه أهل الأخبار ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الإفصاح عن كيفية وصول تلك الخطب وذلك الكلام اليهم ، مع أنهم كرروا القول بأن كلام بعضهم كان كلاماً آخر يخالف كلامنا ، وأن عربيتهم لا تشاكل عربيتنا ، فكيف نقلوها ودوتوها إذن في الاسلام ؟ ان نثراً من هذا النوع هو نثر مصطنع بالطبع صنع على لسان أولئك الماضين ، من غير شك ولا شبهة ، فهو من هذه الناحية مكذوب مرفوض .

وأما النثر المنسوب الى العرب الذين عاشوا قبيل الاسلام ، أو أدركوا الاسلام ، فالصحيح فيه أقل من المصنوع ، خاصة نصوص الخطب والحكم والمواعظ ، والقصاص والأيام ، والوفادات والخطب الطويلة ، لأن من المستحيل على الذاكرة ، حفظ الكلام المشور بالحروف والكلمات حفظ أشرطة التسجيل له أولغناء أو الموسيقى ، مها وهب الله تلك الذاكرة من قوة في قدرة الأخذ والحفظ . ثم هي إذا حفظته اليوم ، فلا بد وأن تتعثر به غداً ، ثم يزداد تعثرها به بعد ذلك . هذا رسول الله يذكر (قس بن ساعدة الإيادي) ، فيقول : « رحم الله قساً كأنني أنظر

اليه على جمل أورد ، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه ^١ ، وإذا راجعت نص خطبة (قس) في الموارد ، تجسد الرواة على اختلاف شديد فيما بينهم في ضبط نصها ^٢ ، وهذا حديث رسول الله التام ، أي المروي بالنص ، وبالطرق الصحيحة تراه يرد أحياناً بعبارات مختلفة مع اتحاد المعنى ، مما يدل على أن رواه قد أجهدوا أنفسهم جهد طاقتهم في حفظه ، لكنهم عجزوا عن حفظه حفظ الكتاب للمكتوب .

خذ صيغ الشهادات في الصلاة مثلاً ، وهي قصيرة العبارة ، لا طول فيها ، تجد الصحابة والفقهاء يختلفون مع ذلك في ضبطها ، فترى نص تشهد (ابن مسعود) يختلف بعض الاختلاف عن نص تشهد (ابن عباس) ، وعن نص تشهد (عمر) ، وعن نص تشهد (أبي سعيد الخدري) ، وعن تشهد (جابر) ، مع قول (ابن مسعود) : « علمني رسول الله تشهد وكفني بكفته ، كما يعلمني السورة من القرآن » ، وقول (أبي سعيد الخدري) : « وكنت لا نكتب إلا القرآن والتشهد » ، وقول (جابر) : « كان رسول الله يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن » ^٣ ، بل أخذ القرآن ، وهو كتاب الله المحفوظ المدون ، الذي حفظه بعض الصحابة ، وتلوه على الرسول ، وحرصوا على المحافظة على نصه حرصهم على حياتهم ، بل أشد منها ، ودوتوه ساعة الوحي ، وأمام الرسول ، ظهرت مع ذلك فيه قراءات ، بسبب اختلاف مدارك الصحابة في فهمه وفي حفظه ، وبسبب اللهجات وعيوب الخط ، فإذا كان هذا ما حدث في أيام الرسول وبعد وفاته بقليل ، وقد وقع في أعز كلام بالنسبة للمسلمين ، فهل يعقل بعد التصديق بصحة النصوص المروية لخطب طويلة ، زعم أنها قيلت في قصور كسرى ، أو بحضرة ملوك الحيرة ، أو الغساسنة ، أو تبايعة اليمن ، أو الكلام المروي عن قوم عاد وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم وغيرهم ممن هلكوا وبادوا قبل الإسلام بزمن طويل .

ثم كيف نصدق بخطب زعم أنها قيلت في الجاهلية ، مثل خطبة (النعمان بن المنذر) أمام كسرى ، أو خطب الوفد الذي أرسله هذا الملك الى (كسرى) ليكلمه في أمر العرب ^٤ ، وهي خطب طويلة منمقة ، على حين يذكر العلماء ان

- ١ الاصابة (٣/٢٦٥) ، (رقم ٧٣٤٣) .
- ٢ الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٤٦٤ وما بعدها) .
- ٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨٢ وما بعدها) .
- ٤ بلوغ الأرب (١/١٤٧ وما بعدها) .

« الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما رويت بالمعنى . وسبب ذلك ، أنهم وجدوا ان من غير الممكن اثبات النص بالرواية من غير تبديل ولا تغيير قد يقع عليه ، وخشية وقوع هذا الخطأ في كلام الرسول ، وهو أعز كلام ، وعليه ترتب الأحكام في الحلال والحرام ، جوزوا الرواية بالمعنى . ولهذا تركوا الاستشهاد بالحديث « على لإثبات القواء- الكلية في لسان العرب »^١ ، ولو وثق العلماء من أن لفظ الحديث ، هو لفظ الرسول حقاً « لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية . وإنما كان ذلك لأمرين : أحدهما ان الرواية جوزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يقل بتلك الألفاظ جميعها ، نحو ما روى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن ، خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فتعلم يقيناً انه صلى الله عليه وسلم ، لم يتلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا يجزم بأنه قال بعضها ، إذ يحتمل انه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ ، فأنت الرواية بالمرادف ، ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب ، ولا سيما تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة والانتكال على الحفظ . والضابط منهم من ضبط المعنى . وأما من ضبط اللفظ فبعيد جداً ، لا سيما في الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، إنما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »^٢ . « وفي سنن الترمذي ، عن مكحول عن واثلة بن الأسقع قال : اذا حدثناكم على المعنى فحسبكم ، ورواية الذهبي في سير أعلام النبلاء : اذا حدثنكم بالحديث على معناه فحسبكم »^٣ .

لقد وجد الصحابة ان من الصعب عليهم حفظ كلام الرسول بالنص والحرف ، وهم معه في كل وقت ، يحدّثهم ويحدثونه ، فيشق عليهم ضبط كلامه ، وهم لا يكتبونه ولا يكررونه عليه ، وليس من الممكن أن يجلس رسول الله ، ثم يطلب من أصحابه إعادة كل كلام كلمهم به ، فسأله أحدهم : « يا رسول الله في أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمعك منك ، يزيد حرفاً أو ينقص

١ خزانة الادب (٥/١) ، (طبعة بولاق) .

٢ خزانة الادب (٥/١ وما بعدها) ، (بولاق) ، أعلام النبلاء ، للذهبي (٢٥٩/٣) .

٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .

حرفاً . فقال : اذا لم تحلّوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصيتم المعنى فلا بأس^١ . وكان من الصحابة من يروي حديثه تاماً ، ومنهم من يأتي بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصراً ، وبعضهم يغيّر بين اللفظين ويراه واسعاً اذا لم يخالف المعنى . وروي عن (مكحول) ، « قال دخلت أنا وأبو الأزهر على وأثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا بحديث سمعته من رسول الله ليس فيه ولا تزيد ولا نسيان ! فقال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئاً ؟ فقلنا : نعم ومسا نحن له بحافظين جداً . إنا نزيد الواو والألف وننقص ، فقال : هذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظاً ، وانكم تزعمون انكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى ألا يكون معنا لها منه إلا مرة واحدة ؟ حسبكم اذا حدثناكم بالحديث على المعنى .

وكان ابن أبي ليلى يروي الشيء مرة هكذا ومرة هكذا بغير إسناد ، وانما جاء هذا من جهة حفظه ، لأن أكثر من مضى من أهل العلم كانوا لا يكتبون ، ومن كتب منهم فإنما كان يكتب لهم بعد السماع ، وكان كثير منهم يروي بالمعنى فكثيراً ما يعبر عنه بلفظ من عنده فيأتي قاصراً عن أداء المعنى بتمامه ، وكثيراً ما يكون أدنى تغيير له مجيلاً له وموجباً لوقوع الإشكال فيه ، وقد أجاز الجمهور الرواية بالمعنى^٢ .

ولتجوزهم رواية الحديث بالمعنى ، لم يحتج أئمة النحو المتقدمين من المصريين بشيء من الحديث في النحو ، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصریح النقل عن العرب « ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث ، لكان الأولى في اثباته فصيح اللغة كلام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنه أفصح العرب^٣ . جرى على ذلك الواضعون الأولون لعلم النحو المستقرين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والخليل ، وسيبويه من أئمة البصرة ، والكسائي ، والقراء ، وعلي بن المبارك الأحمر ، وهشام الضرير من أئمة الكوفة . فعلوا ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى

١ انراقي ، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٣ / ٥٠) ، أبورية (٧٨) .

٢ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .

٣ الخزانة (٤ / ١) وما بعدها .

القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية^١ .

وإذا كان هذا موقف ذاكرة الصحابة من كتاب الله ومن حديث رسوله ، فهل يعقل أن تكون حافظتهم أقوى وأشد حفظاً وأكثر دقة في رواية كلام هو دون كلام الله وكلام رسوله ، فنصدق قول من قال إن (سلمة بن غيلان) التقفي مثلاً دخل في ناس من العرب على كسرى ، فطرح لهم مخادئ عليها صورته ، فوضعوها تحتهم ، إلا سلمة بن غيلان فإنه وضعها على رأسه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : ليس حق ما عليه صورة الملك أن يبتذل ، وما أجد في جسدي عضواً لا أكرم ولا أرفع من رأسي فجعلتها فوقه . فقال له : ما أكلك ؟ فقال : الحنطة . فقال : هذا عقل الحنطة^٢ . أو أن نصدق بكلام وفد (طي) إلى (سواد بن قارب) الدوسي ، وامتحانهم إياه ، ثم جوابه المسجع على سجعهم^٣ ، أو كلام الكاهنة (عفراء) الحميرية^٤ ، أو كلام (ابنة الخس)^٥ ، أو كلام (عبد المطلب) ، وغيره من سادات قريش مع تباينة اليمن وحكامها الحبش ، وهو كلام مضبوط بالحروف والكلمات ، ترويه كتب أهل الأخبار على أنه كلام صحيح صادق ، لم ينله تغيير ولا اعتراه تبديل ، وكأنه قد سجل على شريط (تسجيل) ، أو على اسطوانة ، لم تلعب بها يد إنسان .

جاء في (لسان العرب) : « قيل لسيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبعثه الله رسولا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة ، لأنه ، صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً ، تارة بعد أخرى ، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب ، إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص^٦ ، فإذا كان هذا شأن الخطيب ،

-
- ١ الخزانة (٥/١) .
 - ٢ المصون (١٩٨) .
 - ٣ بلوغ الأرب (٣/٢٩٩ وما بعدها) .
 - ٤ بلوغ الأرب (٣/٢٩٦) .
 - ٥ في جملة كتب « ثعلب » : كتاب : تفسير كلام ابنة الخس ، الفهرست (١١٧) ، (الفن الثاني من المقالة الثانية من كتاب الفهرست في أخبار العلماء) .
 - ٦ اللسان (٣٤/١٢) .

وهو مرتجل الخطبة ، وصاحبها لا يستطيع إعادة نصها ، فكيف يكون حال السامع الذي يسمعا سماعاً ولا يكتبها على صحيفة ، فهل يجوز اذن لنا التصديق بصحة نصوص هذه الخطب الجاهلية وما يروونه عن الجاهليين من أدب منثور !

السجع :

وقد جعل (الجاحظ) كلام العرب أنماطاً ، جعله « في الأشعار ، والأسجاع ، والمزدوج ، والمنثور »^١ .

والسجع في تعريف العلماء له : الكلام المقفى ، أو موالاة الكلام على روي واحد . وقيل : السجع أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي . وسجع يسجع سجعاً : نطق بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن^٢ . وقد أليف (الكهان) النطق بالسجع ، حتى غلب على كلامهم ، واختص بهم ، كما اختص الشعر بالشعراء ، فعرف لذلك بـ (سجع الكهان) . « ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم ، في جنين امرأة ضربتها الأخرى ، فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صباح ، فاستهل . ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان . وفي رواية : إياكم وسجع الكهان . وفي الحديث انه ، صلى الله عليه والدعاء لمشاكله ككلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه ، فأما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل السجع ، فهو مباح في الخطب والرسائل^٣ . وروي الحديث على هذه الصورة : « اقتتل امرأتان من هذيل ، فرمت احدهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله ان دية جنينها غرّة ، عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها . وورثها ولدها ومن معهم . فقال حمل بن النابتة المدلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، فقتل ذلك يطل ، فقال رسول

- ١ الحيوان (٢١٦/٧ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) .
- ٢ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .
- ٣ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

الله ، صلى الله عليه وسلم : انما هذا من اخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع^١ .

قال الجاحظ في معرض كلامه على السجع وقول الرسول : أسجع كسجع الجاهلية^٢ . « وكان الذي كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رثياً من الجن ، مثل حازي جهينة ، ومثل شقّ وسطيح ، وعزّي سكمة ، وأشباههم : كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ، كقول بعضهم : والأرض والسماء والعقاب الصقعاء ، واقعة بيقعاء ، لقد نفر المجدد بني العُشراء ، للمجد والسناء .

وهذا الباب كثير . ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع ابن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون ، وينفرون بالأسجاع ؟ وكذلك ربيعة بن حذار .

قالوا : فوق النهي^٣ في ذلك الدهر ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة ، زال التحريم .

وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم^٤ .

وقد كان الكهان حكّاماً كذلك ، يفصلون في الخصومات بين الناس . يأتي اليهم المتخاصمون ، وبعد أن يؤكدوا لهم رضاهم وقناعتهم بحكمهم ، يحكمون بينهم فيما يرونه . ويتسبب الناس الى الكهان إدراك الغيب برئي يأتي اليهم فيلقي لهم بما يراه ويعلمهم من المغيبات عما يسألون ، ولذلك ورد : أن الكهانة هي ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع ، وورد : الكاهن القاضي بالغيب ، وكل من أدل بشيء قبل وقوعه^٤ .

- ١ شرح الامام النووي على صحيح مسلم (١٩٦/٧) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، صحيح مسلم (١١٠/٥) .
- ٢ البيان والتبيين (٢٨٧/١) ، (لجنة) .
- ٣ البيان (٢٨٩/١) وما بعدها « لجنة » ، (٢٢٩/١) ، (عبد السلام هارون) .
- ٤ بلوغ الارب (٢٦٩/٣) .

ويفهم من روايات أهل الأخبار ومن كتب الحديث والموارد الأخرى ، أن الكهانة كانت شائعة في الناس، فكانوا يقصدونهم في كل شيء لاستشارتهم وللأخذ برأيهم وللفضل في الحصومات والمنازعات . وقد منعها الاسلام ، حتى ورد في كتب الحديث : إن من أتى كاهناً أو عرافاً فقد كفر^١ .

ونجد في بطون الكتب أمثلة من سجع الكهان . وهو يستحق الدرس والبحث، لتحليل عناصره ، وبيان صدقه من كذبه ، وصحيحه من فاسده . وفي بعضه مثل ما نسب الى (زبراء الكاهنة) ، محاكاة لأسلوب السور القصيرة من القرآن الكريم^٢ . وهو مرحلة مهمة من مراحل تطور أسلوب الكلام عند العرب ، وهو حري اذن بالدراسة والبحث .

وقد أشير الى قول الكهان في القرآن الكريم في آية : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »^٣ ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »^٤ . فقد زعموا انه كاهن ، وزعموا انه مجنون^٥ ، فوبخوا لزعمهم هذا ، وقيل لهم ان « محمداً ليس بكاهن فتقولوا هو من سجع الكهان »^٦ . وكانت قریش يدعون انهم أهل النهي والأحلام^٧ ، « فقال الله أم تأمرهم أحلامهم بهذا أن يعبدوا أصناماً بكماً صماً ، ويتركوا عبادة الله ، فلم تنفعهم أحلامهم حين كانت لديابهم »^٨ ، فانزعجوا منه وقالوا عنه انه كاهن ، وانه شاعر ، وانه مجنون . وفي آياتهم الرسول بأنه كاهن ، وبأن القرآن « هو من سجع الكهان »^٩ ، دلالة على وجود السجع عند الجاهليين ، وانه كان من نمط الكلام السذي اختصاصاً به . فلا مجال اذن للشك في وجود السجع عندهم ، وان كنا نشك في صحة نصوص السجع المنسوب اليهم :

- ١ بلوغ الارب (٢٧٠/٣) .
- ٢ راجع كلامها لجماعة من قضاة في بلوغ الارب (٢٨٨/٣ وما بعدها) .
- ٣ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٢٩ .
- ٤ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الآية ٤٢ ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) .
- ٥ تفسير الطبري (١٩/٢٧) .
- ٦ تفسير الطبري (٤١/٢٩ وما بعدها) .
- ٧ تفسير النيسابوري (٢٥/٢٧) ، (حاشية على الطبري) .
- ٨ تفسير الطبري (١٩/٢٧) .
- ٩ تفسير الطبري (٤١/٢٩) .

ويذكر أهل الأخبار ، أن (ضهاداً) لما قدم مكة معتمراً ، « سمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته ، فجاءه فقال له : يا محمد إنني أداوي من الريح ، فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضهاداً فقال : أعدها عليّ ، فأعادها عليه ، فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط »^١ . فالكهنة والسحرة والشعراء هم طبقة خاصة ، كانوا يؤثرون في عواطف السامعين باستعمالهم أسلوباً خاصاً من الكلام ، هو أسلوب السجع ، بالنسبة الى الكهنة والسحرة ، والشعر بالنسبة الى الشعراء . أما الخطباء ، فقد كانوا سجعاً في الغالب ، لكنهم كانوا يستعملون المرسل من النثر أيضاً بأساليبه المختلفة .

وقد ذكر (الجاحظ) أن (الكهان) كانوا « يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »^٢ ، هذه (زبراء) تنذر (بني رثام) ، عن أنباء ستقع ، فتقول « واللوح الحافق والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو ختلاً ، ويحرق أنياباً عَصلاً ، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً ، لا تجدون معه معلاً ، فوافقت قوماً أشارى سكارى ، فقالوا : ربح خجوج ، بعيدة ما بين الفُرُوج ، أنت زبراء بالأبلق التوج . فقالت زبراء : مهلاً يا بني الأعزة ، والله إنني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد ، فقال لها فتي منهم يقال له هُدَيْل بن منقذ: يا خذاق ، والله ما تشمين إلا ذَفَر إبطيك ، فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوي أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم ، وطرفتهم بنو داهن وبنو ناعم فقتلوهم أجمعين »^٣ .

وهذا كاهن (بني أسد) (عوف بن ربيعة) ، يأتيه (رثبه) ، فيتكهن لقومه قائلاً : « يا عبادي ا قالوا : لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه ينثعب ، وهذا غداً أول من يُسلب ، قالوا : من هو يا ربنا ؟ قال :

-
- ١ ابن سعد ، طبقات (٢٤١/٤) ، (الطبقة الثانية من المهاجرين والانصار) .
 - ٢ البيان والتبيين (٢٨٩/١) وما بعدها .
 - ٣ الامالي للقالبي (١٢٦/١) وما بعدها .

لولا : أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم انه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب
وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهاجموا على قبته « ١ » .
وهذا (خنافر بن التوعم) الحميري الكاهن ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم ،
وسعة في المال ، وكان عاتياً ، يأتيه (رثيه) بعد غيبة طويلة ، فيقول :
(خنافر) فيجيبه : (شصار ؟) ، فقال : « اسمع أقل » ، قال خنافر :
قل اسمع ، فقال : عه تنعم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذي أمد الى غاية . قال
خنافر : أجل ، فقال : كل دولة الى أجل ، ثم يتاح لها حول ، انتسخت
النَّحْل ، ورجعت الى حقائقها الملل ، انك سجيرٌ موصول، والنصح لك مبذول ،
وإني آنت بأرض الشام ، نقرأ من آل العُدَام ، حكاماً على الحكام ، يذبرون
ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف ، فأصغيت
فزجرت ، فعادت فظلفت ، فقلت بـم تهيمنون ، وإلام تعرون ؟ قالوا :
خطابٌ كبار ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ،
واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار النار ، فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا :
فرقان بين الكفر والايمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، ابتعث فظهر ،
فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دقّر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن
ازدجر ، ألف بالآي الكبر ، قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قال :
أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر ، وإن خالفت أصليت سقر ، فأمنت
يا خنافر ، وأقبلت اليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايح كل مؤمن طاهر ،
وإلا فهو الفراق ، لا عن تلاق ، قلت : من أين أبغي هذا الدين ؟ قال :
من ذات الإحرّين ، والنفر اليانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح ، قال :
الحق بيثرب ذات النخل ، والحرة ذات النعل ، فهناك أهل الطول والفضل ،
والمواساة والبذل ، ثم امس عني . فبت مذعوراً أراعي الصباح ، فلما برق لي
النور امتطيت راحتي ، وأذنت أعبدي ، واحتملت بأهلي حتى وردت الجوف ،
فرددت الإبل على أربابها بحولها وسقابها ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصببت بها
معاذ بن جبل أميراً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الاسلام
وعلمني سوراً من القرآن ، فمن الله عليّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة .

وهكذا أسلم - على حد قول أهل الأخبار - والفضل يعود في ذلك الى (رثيه) (شصار) الذي أسلم قبله ، وهو من الجن ، والجن مثل البشر ، منذ ظهر الاسلام بين مسلم وكافر . ولما أسلم (خنافر) ، قال شعراً يحمده الله فيه على أن من عليه بالاسلام ، ويذكر (رثيه) (شصار) بالخير ، إذ لولاه لكان في نار جهنم^١ .

وأستدوا له قوله :

ألم ترَ أن الله عاد بفضله وأنقذ من لفح الجحيم خنافرا
دعاني شصار للتي لو رفضتها لأصليت جمرأ من لظى الهون جائرا

وهو خبر يرجع سنده الى (ابن الكلبي) . وقد ذكر في الأخبار المشورة لابن دريد . وقد ذكر انه أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن^٢ . لا أدري كيف حفظه (ابن الكلبي) ورواه عن والده ، الذي صنعه ووضع ، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها ، وهو ما يعد من المستحيلات .

وقد أمانت الاسلام (الكهانة) ، فقد اجتثها وحاربها ، وحث على نبذ سجع الكهان وأساليب الكهان في الملبس ، فكان منهم من قاوم ، ثم انخلد ، بدخول قومه في دين الله ، فدخل معهم فيه . وفي كتب أهل الأخبار قصص على نمط قصة اسلام (خنافر) ، وكلام دار بينهم وبين (رثيهم) ، دونه أهل الأخبار بالحروف والكلم ، لم يتركوا منه حرفاً ، وكأنهم كانوا كتاب ضبط محضر جلسات أمروا بتدوين كل محضر ساعة وقوعه . وتجد أخبار الكهان ، وما لاقوه من عنت من (رثيهم) حين أدركوا الاسلام ، وما أخبروا به من قرب ظهور الرسول كأخبار العراف اللهي (العائف)^٣ ، و (الغيطلة) الكاهنة^٤ ، والكاهن (خطر)^٥ ،

١ الامالي (١٣٤/١) وما بعدها .

٢ الاصابة (٤٥٧/١) ، (٢٣٤٢) ، الاستيعاب (٤٥٩/١) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

٣ ابن هشام ، سيرة (١١٨/١) ، (حاشية على الروض) ، (١٣٥/١) وما بعدها ، (أخبار الكهان) .

٤ ابن هشام (١٣٧/١) ، الروض الانف (١٣٧/١) .

٥ ابن هشام (١٣٨/١) .

والكاهن (سواد بن قارب) الدوسي^١ ، و (ابن الهيان)^٢ ، والمأمور الحارثي^٣ ، وغيرهم وغيرهم .

ولسجع الكهان ، طريقة خاصة به ، ميزته عن سجع غيرهم ، فهو قصير الفقرات ، يلتزم التلفية وتساوي الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، يعمد الى الألفاظ العامة المبهمة المعماة ، والى تكوين الجمل الغامضة ، ليتمكن تأويلها تأويلات متعددة ، وتفسيرها بتفاسير كثيرة ، لا تلزم الكاهن ، فيقع في حرج ، كالذي يقع لو تكلم بكلام واضح صريح . فيظهر بمظهر الجاهل الكاذب . أما السجع المنسوب الى الخطباء ، فقره أطول ، وكلمه أوضح ، طويل النفس ، متحرر نوعاً ما من قيود سجع الكهان ، بين الفقر تطابق في الطول ، وفي فقره ييسان مشرق ، فواصله كفواصل الشعر من دون وزن . جهد صاحبه أن يجعل الفواصل واضحة صافية ، ذات مقاطع مستقلة في الغالب بمعناها ، وينتهي الكلام بانتهائها من غير التزام قافية ، وقد يكون مرسلأ ، خالصاً من تساوي الجمل والتزام القافية ، فهو بين سجع وازدواج وترسل . وقد يكون مزدوجاً ، فهو سجع خفيف مقبول .

وبالإضافة الى السجع ، واستعمال الألفاظ الغامضة المبهمة ، والإيماءة والرموز والتكنية عن الأشياء ، تهرباً من التصريح ، وحذر افتتاح الأمر ، كان الكاهن يلحف في الأسئلة ويعمن في الاستفسار ، حتى يستنبط من ذلك بلفظته وذكائه ما يريد السائل ، فيعطيه جواباً مائعاً ، شأن جواب السحرة والعرافين ، كما كان يعمد الى القسم بظواهر الطبيعة من كواكب ونجوم، وشمس وقمر، ورياح وعواصف وسحب ، وليل ونهار ، وشجر وحجر، وأمثال ذلك مما نجده في خطبهم وأقوالهم ، وهو شيء يلفت النظر ، ويبعث على التعجب من قسم القوم بهذه الأمور . ولكن المتتبع الدارس لعقائد القوم في الجاهلية ، وحياتهم الاجتماعية لا يعجب من ذلك ، كما لا يعجب من قسمهم بالخبز ، والملح ، واللبن ، والقوس ، والعصا ، فإن لهذه الأمور وأمثالها معاني عميقة عند أهل الجاهلية ، فقدت أكثريتها معانيها في

١ ابن هشام (١٤٠/١) .

٢ ابن هشام (١٤١/١) .

٣ الامالي (٢٧٦/١) ، الاغانى (٧٠/١٥) .

الاسلام ، بسبب إبطاله لتلك العقائد ، وان بقي حشد منها في نفوس الناس الى هذا اليوم ، بسبب رسوخه في العقل والدم .

وفي القرآن قسم بالسما ، وبالعاديات ، وبالتين والزيتون ، وبغير ذلك ، ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب ، ففسروا وتأولوا ، ولو فكروا ان هذا النوع من القسم ، هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الاسلام ، وأن القرآن انما نزل بلسان العرب ، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم ، لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم ، عرفوا السبب ، ولا زال الأعراب على سجيبتهم القديمة في القسم بهذه الأشياء ، يقسمون بها كما يقسم المتحضر بأعز شيء عنده .

والسجع في الواقع باب من أبواب الشعر ، والمرحلة الأولى من مراحلها ، والبذرة التي أنبتت الشعر العربي . ويتكون من فقرات . واذا أخذنا الشعر البدائي الذي يكون المرحلة الأولى من الشعر ، نرى انه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن السجع . و (الكلام المسجع) ، هو ضرب من ضروب الشعر عند غير العرب . وقد طور الشعراء السجع ، وأوجدوا منه الشعر ، واذا درسنا أول الشعر العبراني ، أو أوليات الشعر عند الشعوب السامية ، وعند الشعوب الآرية ، نجد انه نمط من أنماط هذا الكلام الذي نسميه (السجع)^٢ . وهو لا زال يعد شعراً عند كثير من شعوب هذا اليوم .

والمزاوجة والازدواج بمعنى واحد . وازدوج الكلام وتزوج أشبه بعضه بعضاً في السجع أو الوزن^٣ ، والازدواج لون من ألوان الإفصاح عن الشعور بأسلوب من أساليب الأدب المنثور ، أخف على النفس من السجع ، وأسهل انقياداً لأنامل الكتاب منه . وهو على كل حال لون من ألوانه ، خففت قيود قوافيه ، حتى صار على هذا الشكل . ومن الازدواج قول أحد بني أسد يخاطب رجلاً شيخاً مات ابن له : « اصبر أبا أمامة ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » . فقال مجيباً له : « ولد دفتته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعيدته ، والله لئن لم أجزع النفس ، لا أفرح بالمزيد »^٤ .

١ تفسير الطبري (١٥٣/٣٠ وما بعدها) .

٢ Goldzher, History of Classical Arabic Literature, p. 8.

٣ تاج العروس (٥٥/٢) ، (زوج) .

٤ البيان والتبيين (١١٦/٢) .

وقد تحدث (الجاحظ) في أثناء حديثه عن الشعوبية ومطاعنها على خطباء العرب عن أساليب الجاهليين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمفاخرة ، وعتد المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك ، ثم عن أخذهم المخصرة ، عند مناقلة الكلام ، فقال : « ومطاعنهم على خطباء العرب : بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لم يُتَقَفْ ، وبالأرجاز عند المنح ، وعند مجاثمة الخصم ، وساعة المشاورة ، وفي نفس المجادة والمحاورة . وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعمال المنثور في خطب الجمالة ، وفي مقامات الصلح ، وسلّ السخيمة ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن . مع الذين عابوا من الإشارة بالعصي ، والاتكاء على أطراف القسي ، وخذّ وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا اسحفرت في كلامها ، وافتنت يومَ الحفل في مذاهبها ، ولزومهم العائم في أيام الجموع ، وأخذ المخاصر في كل حال ، وجلوسها في خطب النكاح ، وقيامها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الجمالة ، وأكد شأن المحالفة ، وحقق حرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام ، والمجامع الكبار ، والتاسح بالأكف ، والتحاليف على النار ، والتعاقد على الملح ، وأخذ العهد الموكّد واليمين الغموس ، مثل قولهم ما سرى نجم وهبت ريح ، وبسلى بحر صوفة ، وخالفت جرة درة ^١ . فنحن إذن أمام طرق من الكلام ، كل طريق منها يؤدي الى نوع من الكلام ، يستخدم في حالة من الحالات ، فساجلة الخصوم ، تكون بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لا يقفى ، أي المرسل ، أما في حالة الشدة والعمل ، مثل المنح ، أي الاستقاء من البئر ، وفي حالات البناء ورفع الحجر ، وفي القتال ، فتستعمل الأرجاز ، لتنشيط المهمة . وأما السجع ، فيستعمله الكهان ، ويستخدم في المنافرة والمفاخرة ، وأما المنثور ، أي الكلام المرسل ، الخالي من السجع والازدواج ، فيستعمل في الجمالة ، أي تحمل ديات قوم لا مال لهم ، فيقوم غيرهم بتحمل مبلغ الدية ، وفي مقامات الصلح ، ودفن الأحقاد والصغائن ، الى غير ذلك من حالات . فالسجع ، إذن غير النثر ، وغير

١ البيان والتبيين (٣/٥ وما بعدها) .

المزوجة ، وغير الرجز . وقد جعل (الجاحظ) الكلام المنشور : أسجاعاً ،
وازواجاً ، ومثوراً^١ . فهذه في نظره أساليب النثر .

وأنا إذ أصف أسلوب النثر عند الجاهليين ، لا أعني اني أثق بصحة هذا
النثر المنسوب اليهم ، وأثبت صحة نصه ، وإنما أنا أصفه مستنداً في وصفي هذا
على المدون المعمول عليهم ، الوارد اليينا في بطون الكتب ، لأنه وإن كان في
نظرنا مصنوعاً موضوعاً ، لكنه صيغ على كل حال وفق أسلوب الجاهليين ،
وعلى نمط كلامهم ، إذ لا يعقل أن يكون الرواة قد اخترعوا تلك الأنماط من
الكلام اختراعاً ، وأوجدوها من العدم إبداعاً ، فهم إذ وضعوا على ألسنة أهل
الألسنة من العرب ، فإنما وضعوا عن تقليد ومحاكاة، وعلى نمط كلام سابق كان
مألوفاً عند أهل الجاهلية الذين أدركوا الاسلام. ودليل ذلك أثره في خطب الخطباء
الذين خطبوا أمام الرسول ، وفي خطب الخطباء الذين عاشوا في صدر الاسلام .
فأنا حين أرفض النصوص ، لا أزعم انه لم يكن لهم نثر ، وان النثر انما ظهر
وعرف في الاسلام ، بل أقر انه قد كان لهم نثر ، وكانت لهم خطب وكان لهم
كلام ، ولكن أقول إن هذه النصوص المثبتة المدونة ، هي نصوص لا يجوز
العقل أن تكون صحيحة أصيلة مضبوطة ، لما قلته من عدم قدرة الذاكرة على
المحافظة على أصالة النثر .

وأود أن أستثني الأمثال الجاهلية من هذا التعميم الذي عممته على نصوص النثر
الجاهلي ، فالأمثال بحكم إيجازها وكثرة انتشارها على الألسنة ، ولكونها أداة تعليمية
تحفظها الذاكرة ، ولا تخطيء فيها كثيراً ، حافظت لذلك على أصلها ونصها ،
ودليل ذلك اننا لا نزال نضرب الأمثال بها حتى اليوم ، ثم إن منها ما قد ضرب
به مثلاً في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي خطب الخلفاء الراشدين
وكتبهم ، ولهذا فنحن لا نبتعد عن العلم إن قلنا بصحتها من حيث النص والمعنى ،
أي من حيث الضبط بالكلم ومن حيث المحافظة على المعنى^٢ . أما بقية النثر ،
فأنا على رأيي من عدم إمكان القول بصحة نصوصه، وإن كنت أوافق على جواز
بناء بعض النصوص على معان جاهلية ، فيكون النص في هذه الحالات من وضع

١ البيان والتبيين (٢٨/٤) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٢٩/١) .

الرواة ، أما المضمون فجاهلي ، تطور وتزوق حسب الأفواه التي روتته ودبجته ، بحيث ظهر على الصورة التي وصلت إلينا .

وإذا كان الحال على هذا المنوال ، فأين يا ترى نجد النثر ؟ وجوابي أنك لا تجد النثر الصحيح المنشور بهذه العربية البينة الفصيحة إلا في القرآن الكريم . فالقرآن الكريم ، لكونه كتاب الله وقد دوت ساعة نزوله ، دونه كنية عند نزول الوحي ، وأخذة عنهم كنية آخرون وحفظه الحفاظ ، وقرأ الكثير منهم ما كتبه من أي أو ما حفظه منها ومن السور على الرسول ، فأيد قراءتهم، وثبت كتابتهم ، فهو لهذا الكتاب الوحيد المنزل بلسان عربي مبين . لا شبهة في ذلك ولا شك . أرشدنا إلى أساليب الجاهليين في فنون القول ، بمخاطبته لهم بلسانهم وبطرق بيانهم ، وبأسلوب محاججتهم ، وضرب لهم الأمثال بأمثالهم ، كي تكون عبرة مقبولة عندهم ، ومخاطبهم على قدر عقولهم ، بلسان عربي مبين ، يفهمه كل العرب ، ففيه إذن نجد نثر العرب ، وإن كان هو أبلغ النثر ، وفيه نجد حياة الجاهليين وعقليتهم .

وقد وصف (الجاحظ) أسلوب القرآن بقوله : « خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منشور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج »^١ .

ثم نجد هذا النثر في الحديث ، في الحديث النبوي ، وفي الحديث موضوع وضعيف ، إلا أن فيه ما لا يشك في صحته . وفيه ما روي بالمعنى ، لتجوزهم الرواية عن الرسول بالمعنى ، خشية الخطأ في النص ، والتقول عليه ، ومن تقل على رسول الله متعمداً ، تبوأ مقعده في النار . وقد روي الحديث رواية ، أي مشافهة ، غير أن من العلماء من ذكر أن (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، كان قد كتب حديث الرسول ، وذلك أنه استأذنه في أن يكتب حديثه فأذن له . وروي عنه انه قال حفظت عنه ألف مثل ، وروي عن (ابي هريرة) قوله : « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر حديثاً مني ، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو ، فإنه كان يكتب »^٢ . ولكننا لم نسمع بما حل

١ البيان والتبيين (٣٢) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م) .
٢ الاستيعاب (٣٣٩ / ٢) ، (حاشية على الاصابة) ، (الاصابة (٣٤٣ / ٢) ، (رقم (٤٨٤٧) .

بالصحف التي دون بها (عبدالله) حديث الرسول ، ولا أدري اذا كان ما روي عنه في المساند ، مثل مسند (أحمد بن حنبل) قد نقل من تلك الصحيفة نقلاً أم رواية^١ .

وهناك روايات تذكر ان (همام بن منبه) ، أخذ عن (أبي هريرة) ، حديث رسول الله ، وكتب ما أخذه في صحيفة عرفت بـ (الصحيفة الصحيحة) في مقابل (الصحيفة الصادقة) المنسوبة لعبدالله بن العاص ، ونجد نقولاً منها في البخاري ، وفي مسند (أحمد بن حنبل)^٢ . وقد نشرت هذه الصحيفة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق^٣ . وهذه الصحيفة ، إن صح أنها من وضع (همام بن منبه) ، وأنها أصيلة ، ذات أهمية كبيرة بالطبع ، لأنها أقدم صحيفة نعرفها في الحديث بعد صحيفة (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، وإن كانت دونها في المنزلة ، لأنها أخذت عن لسان (أبي هريرة) ، وأخذ (عبدالله) حديثه من فم الرسول ، ومن الجائز أن يكون حديث أبي هريرة بلسانه ، أما حديث (عبدالله) ، فربما كان بلسانه أيضاً ، غير انه كان ينقله من فم الرسول فيحفظه ثم يدونه ، فهو أقرب الى الصحة من صحيفة (همام) . وربما كان (عبدالله) ، قد دون حديثه بحضرة الرسول ، فإن هذا الموضوع ، لا زال مجهولاً ، لم يبحث بحثاً علمياً صحيحاً ، وهو ينتظر من الباحثين من يقوم بالبحث عنه .

ويظهر من أحاديث تنسب الى الرسول مثل حديث : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فن كتب عني غير القرآن فليمحه »^٤ ، ومن أخبار تنسب الى (أبي بكر) و (عمر) في النهي عن كتابة الحديث ، مثل ما نسبوا الى (عمر) من انه كتب الى الأمصار من كان عنده شيء من الحديث فليمحه ، ومن انه أنشد الناس أن يأتوه بصحف الحديث ، فلما أتوه بها أمر بتخريقها ، ثم قال :

- ١ راجع في موضوع الحديث : أبورية ، أضواء على السنة المحمدية .
- ٢ مسند الامام أحمد بن حنبل (٢/٣١٢ وما بعدها) ، لقد تحدثت عن « همام بن منبه » في أثناء حديثي عن « موارد تاريخ الطبري » ، المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول فما بعده .
- ٣ المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) ، (الجزء الثاني والثالث) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٤٦) .
- ٤ أبورية ، أضواء (٤٦) .

مئاة كمشاة أهل الكتاب ! ومثل ما نسب الى (علي) من قوله : « اعزم على كل من عنده كتاب إلا رجع فحاه ، فإنما هلك الناس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »^١ ، وأمثال ذلك مما نسب الى الصحابة في النهي عن كتابة الحديث ، وفي الحث على تحريق ما قد كان عندهم من صحف وكتب أو إحصائه ، انه قد كان عند الصحابة صحف فيها حديث رسول الله كتبت في أيام الرسول وبعده ، كانوا يراجعونها ويستعززون بها ، وكان في بعضها ما يشك في صحته وفي صدوره من الرسول ، ولخوف الرسول وصحابته من أن يأتي يوم تكون فيه تلك الصحف مرجعاً للناس مثل رجوعهم للقرآن ، يتخذونها سنداً لهم ، اتخذ اليهود للمشاة ، أي (المشتا) ، أمروا بانلافها وبالنهي عن التدوين . والاكفاء بالحديث مشافهة ، وينشره بالرواية . وهي طريقة غير مأمونة أيضاً ، فالتدوين أضمن منها وأسلم ، ولكنها طريقة كانت متبعة في ذلك الحين ، لأسباب لا أستطيع أن أتحدث عنها في هذا المكان ، لأن الحديث عن تدوين حديث رسول الله وعن ورود النهي عن تدوينه يخرجنا عن الحدود المرسومة لهذا الكتاب . على كل فإن أخذ المحدثين بمبدأ رواية حديث الرسول بالمعنى ، كان هو السبب الذي حمل علماء النحو واللغة على عدم الاستشهاد به في شواهد القواعد واللغة ، كما بينت ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

وفي رسائل الرسول وكتبه ووصاياه وخطبه وأوامره ، وفي خطب الوفود التي كانت تفتد عليه ، وفي خطب الصحابة ، أمثلة على طبيعة وأسلوب الخطب عند الجاهليين ، ولا سيما القديم من تلك الخطب الذي ألقاه الخطباء أمام الرسول قبل دخولهم في الاسلام ، فهو في الواقع استمرار لأسلوب الخطاب في الجاهلية ، ألقى بالطريقة المألوفة عندهم التي تمثل التفكير الجاهلي ، والعقلية الجاهلية أيام ظهور الاسلام . وإن كنت أشك في صحة كثير من الخطب والرسائل المنسوبة الى الرسول ذلك لأننا إذا درسنا نصوص هذه الرسائل ، نجد أصحاب السير والتواريخ يروونها بصور مختلفة ، وفي اختلافهم هذا ، دلالة على أن الرواة لم ينقلوها من أصل مكتوب ، وإنما أخذوا النص بطريق المعنى والرواية ، فوقع من ثم هذا الاختلاف . أضف الى ذلك فعل التزوير ، فقد نص المؤرخون وأرباب السير على أن بعض

١ المصدر نفسه (٤٦ وما بعدها) .

أهل الكتاب وسادات القبائل والرجال ، قدموا للخلفاء كتباً مزورة فيها إقرار قرار وإحقاق حق ، للمطالبة بتنفيذ ما جاء فيها ، وفي حديث : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار »^١ ، وحديث آخر يشبهه هو : « إن الذي يكذب عليّ يبيّن له بيتاً من النار » ، وأحاديث أخرى من هذا القبيل^٢ ، دلالة على وقوع الكذب على الرسول في حياته وبعد وفاته .

وقد ورد أن الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يُوجّه إليهم الخطاب كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة : حتى قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الاختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا إليه »^٣ .

فإذا كان الأمر من اختلاف لغات العرب على هذا النحو ، وإذا كان الصحابة ومنهم الخلفاء ، وهم على ما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، لم يفهموا كلام الوفود ، فهماً صحيحاً ، حتى كان الرسول يفسر لهم ما كان يقوله للوفود ، وما كانت الوفود تقوله له ، فكيف نصدق بصحة نصوص خطبهم وكلامهم ، وقد أقيمت بلهجاتهم الخاصة ، ولم يكن هناك كتابة ولا مدونون ، يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ومحاضر كلامه معهم ، وما كان يقع بحضوره من نقاش وكلام ؟

وأنت إذا راجعت خطب الرسول التي خطبها في (حجة الوداع) تجدها وقد

- ١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (١٢٢) ، (تحقيق اكرم ضياء العمري) ، (من كذب علي ، فليتبوأ مقعده من النار) ، « والله ما قال متعمداً ، وأنتم تقولون متعمداً » ، أبورية ، أضواء (٦٢) .
- ٢ أبورية ، أضواء (٥٩ وما بعدها) .
- ٣ الرافعي (٣٢٥/١) .

رويت بصور مختلفة^١ ، وفي هذا الاختلاف دلالة بيّنة على أنها لم تنقل من أصول مكتوبة ، وإنما أخذت من الأفواه ، وإلا لما جاز عقلاً وقوعه أبداً . وسبب ذلك ، أن الناس في ذلك الوقت ، لم يكونوا قد تعودوا لا في الجاهلية ولا في الإسلام اتخاذ كتاب لتدوين ما كان يقع لهم من أحداث ، ولم يكن عندهم مراسلون يرافقون الملوك والحكام وسادة القبائل والوفود ، لوصف مواكب الملوك ومشاهدتهم وحروبهم ، وخطبهم ومفارصاتهم مع سادات القبائل . وكذلك كان الحال في الإسلام ، بل ولا رواية لهم ذاكرة قوية ، لحفظ أحاديث المجالس والأحداث ، واداعتها بين الناس ، لأن العناية بحفظ الأحداث والتواريخ وتخليدها تقتضي وجود وعي بأهمية تدوين التاريخ ، ولم يكن هذا الوعي معروفاً آنذاك . ولهذا جاءت أخبار الحوادث عن طريق شهود عيان رووا ما شاهدوه لأصحابهم ، كما يروي أي إنسان ما قديقع له من أمور لأصدقائه، وهؤلاء قصوا تلك المرويات على أصحابهم وعلى من جاء بعدهم بلغتهم ، وهذه الطريقة وصلت الأخبار إلى المدونين عندما بدأوا بالتدوين. وليس من المعقول بالطبع محافظة الذاكرة على النصوص الأصلية للخطب وللکلام ، ولقول الراوي الأول للأحداث . وليس من المعقول أيضاً وصولها سالمة نقيّة من كل تغيير أو تبديل أو تحريف ، ولا سيما في الأمور العاطفية التي تضرب على أوتار العصبية . ولهذا الأسباب وغيرها فنحن لا نستطيع الاطمئنان إلى صحة هذه الأخبار المروية من الأفواه ، لما يحتمل أن يكون قد وقع فيها من زيف أو من تحريف عن عمد أو من غير عمد . ولو كانت الذاكرة تعي كل كلام وتحفظ كل حديث بالحرف والكلمة ، لما أجاز العلماء رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذ كان من الصعب حفظه بالحرف . ولا أظن أن أحداً يقول إن حفظ أخبار الجاهلية ونصوص كلام رجالها، أهم عند العرب من حفظ حديث الرسول .

وأنا أشك في صحة أكثر ما نسب إلى (مسيلمة) من كلام وقرآن . وهو (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، المكنى بـ (أبي ثمامة) ، والمنعوت بـ

١ راجع كتب السير والتواريخ في خطبة الوداع ، الطبري (٣/١٤٩ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/٣١) ، ابن الاثير (٢/١٤٦) .

المسلمين بـ (الكذاب)^١ . واسمه الصحيح (مسلمة) ، وقد صغر في الاسلام ،
ازدراءً بشأنه . فقد روي انه صنع قرآناً مضاهاة للقرآن ، غير انهم لم يتحدثوا
بشيء عن قرآنه . واذا صح ما ذكره أهل الأخبار من انه ادعى الوحي بمكة أو
باليامة قبل الاسلام ، وانه نزل على نفسه آيات زعم انها تنزل من الرحمان ،
فيكون قد باشر بتأليف قرآنه قبل الوحي^٢ .

وذكر ان في حقه نزلت الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو
قال أوحى إليّ ، ولم يوح اليه بشيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »^٣ .
فقد ذكر علماء التفسير ان عبارة : « أو قال أوحى إليّ ولم يوح اليه بشيء » ،
نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة ، فيما كان يسجع ويتكهن به . ومن
قال : سأنزل مثل ما أنزل الله نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أخي
بني عامر بن لؤي ، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما يملي :
عزيز حكيم ، فيكتب : غفور رحيم فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل ،
فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الاسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد
كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحوله ثم أقول لما أكتب ، فيقول : نعم سواء^٤ .

وكان من حديث (مسيلمة) ان قريشاً قالت للرسول : « بلغنا انه انما يعلمك
هذا رجل باليامة ، يقال له الرحمان ، وإنا والله ما نؤمن بالرحمان أبداً »^٥ ،
وذكر أهل الأخبار ان قريشاً « حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال
قائلهم : دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمان اليامة »^٦ ، لأنهم كانوا قد سمعوا
بدعوته الى عبادة الرحمان ، قبل نزول الوحي على الرسول . وورد « انهم لما

١ « وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان
ابن ذهل ، بن الدول بن حنيفة . يكنى أبا أمامة ، قيل أبا هارون ، وكان يسمى
بالرحمان فيما روى عن الزهري قبل مولد عبدالله والد النبي » ، الروض الانف
(٣٤٠/٢) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، (كذاب اليامة) ، مروج الذهب (٣٠٣/٢) ،
المعارف (٩٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٤) ، اليعقوبي
(١٢٠/٢) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٢ تحدثت عنه بتفصيل في الجزء السادس من هذا الكتاب في فصل : انبياء جاهليون .
٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ٩٣ .
٤ تفسير الطبري (١٨١/٧) .
٥ تفسير الطبري (١١١/١٥) .
٦ اليعقوبي (١٢٠/١) ، الروض الانف (٣٤٠/٢) .

سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن قالت قريش : أتدرون ما الرحمن ؟ هو كاهن اليامة ! . وقد قالوا لمسيلمة : رحمان ، وقالوا أيضاً فيه : رحمان اليامة^١ .

وأنا لا أستبعد احتمال مجيئه الى مكة قبل الاسلام . فقد ذكر انه تزوج (كبشة) (كيسة بنت الحارث بن كريض بن حبيب بن عبد شمس)^٢ ، وهي من مكة ، فلا يعقل عدم مجيئه الى مكة وإقامته بها بعض الوقت ، ومجيئه اليها بين الحسين والحسين . ومن هنا كان لأهل مكة علم بدعوة مسيلمة الى عبادة (الرحمان) .

وقد زعم أنه « كان يقول : أنا شريك محمد في النبوة ، وجبريل عليه السلام ينزل عليّ كما ينزل عليه ، وكان رجال بن عنفوة من رائي نبله ، والحاطين في حبله ، والساعين في نصرته . وكان مسيلمة يقول : يا بني حنيفة ، ما جعل الله قريشاً بأحق بالنبوة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم ، وسوادكم أكثر من سوادهم ، وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم . ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد الناس يتذاكرونه وما يبلغهم عنه من قوله وقول بني حنيفة فيه ، فقام يوماً خطيباً ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه . أما بعد ، فإن هذا الرجل الذي تكثرون في شأنه كذاب في ثلاثين كذاباً قبل الدجال ، فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب ، وأظهروا شتمه وغيبه وتصغيره ، وهو باليامة يركب الصعب والذلول في تقوية أمره ، ويعتصد برجال بن عنفوة ، وهو ينصره ويذب عنه ويصدق أكاذيبه ، ويقراً أقاويله التي منها : والشمس وضحاها ، في ضوئها ومنجلاها . والليل إذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فأدرکہا حتى أتاها وأطفأ نورها فحهاها »^٣ .

« ومنها : سبح اسم ربك الأعلى ، الذي يسر على الحُبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أحشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس في الثرى ، ومنهم

- ١ الخزانة (٢٨٥/٢) ، (هارون) .
- ٢ كتاب نسب قريش (٣٠) ، الروض الانف (١٩٨/٢ ، ٣٤١) ، المحبر (٤٤٠) ، امتاع الاسماع (٢٤٧/١) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) ، الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٩٦) .
- ٣ ثمار القلوب (١٤٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣٥٩/١) ، المعارف (١٧٨) ، التنبيه ، للمسعودي (٢٤٧) .

من يعيش ويبقى الى أجل ومنتهى ، والله يعلم السرّ وأخفى ، ولا تخفى عليه
الآخرة والأولى .

ومنها : اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ؛ إذ جعل لكم الشمس سراجاً ،
والغيث ثجاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً ، وفضة وزجاجاً ، وذهباً وديباجاً ،
ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رماناً ، وعبياً ، وريحاناً ، وحنطة
وزؤاناً .

وكان أبو بكر إذا قرع سمعه هذه الترهات يقول : أشهد أن هذا الكلام لم
يخرج من لثته « ١ » .

« وكان رجال بن عتقوة صاحب مسيلمة قدم المدينة مراراً ، وقرأ القرآن
وأظهر الإيمان ، وأسرّ الكفر . ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بينما هو
جالس في أصحابه ، إذ سمع وطناً من خلفه ، فقال : هذا وطء رجل من أهل
النار ، فإذا هو رجال بن عتقوة . فلما قدم وقد حنيفة على النبي صلى الله عليه
وسلم - وفيهم مسيلمة إلا انه لم يلقه - وأظهروا الاسلام وأرادوا الانصراف ،
أمر لهم عليه الصلاة والسلام بجوائز كعادته في الوفود ، وقال : هل بقي منكم
أحد ؟ قالوا : لا ، إلا رجل منا يحفظ رحالنا - يعنون مسيلمة - فقال صلى
الله عليه وسلم : ليس بشرّكم مكاناً . فلما رجع الوفد الى مسيلمة وقد بلغه كلام
النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : قد سمعتم قول محمد في : ليس بشرّكم
مكاناً ، وقد أشركني في الأمر بعده ، فعليكم به . ولما انصرفوا الى اليامة أعلن
مسيلمة النبوة ، وادعى الشركية ، وقتل أهل اليامة ، وانقسموا بين مصدق
ومكذّب ، وراضٍ وساخط . وكتب مسيلمة الى النبي صلى الله عليه وسلم ،
كتاباً قال فيه : الى النبي محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله ، أما بعد ،
فإني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ،
ولكن قريشاً قومٌ يعتدون ولا يعدلون . وختم الكتاب وأنفذه مع رسولين ، فلما
قرىء الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لها : ما تقولان ؟ قالتا :
نقول ما قال أبو ثمامة ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما .

١ ثمار القلوب (١٤٧ وما بعدها) .

وأملى في الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتاباً يذكر فيه انه جعل له الأمر من بعده ، فصدقه أكثر نبي حنيفة .

وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه أن يدعو لمريضهم ، ويبارك لمولودهم ، وجاءه قوم بمولود لهم فمسح رأسه فقرع . وجاءه رجل يسأله أن يدعو لمولود له بطول العمر ، فمات من يومه .

وكان ثمامة بن أثال الحنفي يقشع جلد من ذكر مسيلمة ، وقال يوماً لأصحابه : إن محمداً لا نبي معه ولا بعده ، كما ان الله تعالى لا شريك له في ألوهيته ، فلا شريك لمحمد في نبوته . ثم قال : أين قول مسيلمة : يا ضفدع نقي نقي ، كم تنقين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشرب تمنعين ، من قول الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . فقالوا : أوقع بمن يقول مثل ذلك مع مثل هذا !^١ .

وقد روي قول (مسيلمة) في الضفدع على هذا النحو : « يا ضفدع بنت ضفدعين : نقي ما تنقين . نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين »^٢ . وروي أن وفد اليمامة لما قدم على (أبي بكر) بعد مقتل مسيلمة ، « قال لهم : ما كان صاحبكم يقول ؟ فاستغفوه من ذلك ، فقال : لتقولن . فقالوا : يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الشارب^٣ تمنعين ، ولا الماء تكدرين ... في كلام من هذا كثير . فقال أبو بكر : ويحكم ! إن هذا الكلام لم يخرج من إل ولا بر ، فأين ذهب بكم »^٤ ؟ ، أو أنه قال : « هذا كلام ما أتى من عند إل ، أي من عند الله . وهو في الأسماء الأعجمية لإيل ، مثل إسرافيل ، وجبريل ، وميكائيل ، وإسرائيل ، واسماعيل »^٥ . وقيل الإل

- ١ ثمار القلوب (١٤٨ وما بعدها) .
- ٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٠/٢) .
- ٣ في الاصل « الشراب » ، وفي الموارد الاخرى الشارب .
- ٤ ألفائق (١٢٢/٣) .
- ٥ الاكليل (٧/٢) .

الربوبية ، والأصل الجيد والمعدن الصحيح ، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن . ويجوز أن يكون بمعنى النسب والقرابة ، من قوله تعالى : « لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة » . وقول حسّان :

لعمرك إن إلّاك من قریش كإلّ السقب من رأل النعام^١

وقد ذكر (الطبري) في مقدمة تفسيره ، أن القرآن لما نزل على الرسول ، « أقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالتقص ، إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه غير قادر عليه ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستوراً ومن عي لسانه ما كان مصوناً ، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجنناً ، فالخايزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللااقات لقمّاً ... ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة »^٢ . والطبري وإن لم يصرح باسم قائل هذه الحماقات ، لكنه قصد به مسيلمة من غير شك .

أما أن تلك الآيات آيات قاطا (مسيلمة) حقاً ، فذلك قضية لا يمكن إثباتها ، فلما قتل ، وضع أصحابه عليه أموراً كثيرة ، قد يكون في جملتها هذه الآيات . أما قرآنه الذي قيل إنه وضعه يضاھي به القرآن ، فقد هلك بهلاكه ، ولم أجد أحداً ذكر أنه وقف عليه ، ونقل منه ، ولعلته كان كلاماً لم يسجل في حياة مسيلمة ، وإنما كان محفوظاً في صدر صاحبه وفي صدور أتباعه ، ودخل من دخل من أصحابه في الاسلام طمس أثر ذلك القرآن .

وقد دون (الرافعي) الآيات التي أخذتها من تفسير الطبري ، على هذه الصورة : « والمُبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحنناً ، والعاجنات عجنناً ، والخوايزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللااقات لقمماً ، إهالة وسماً ... لقد فضلتكم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ويفكم فامنعوه ،

١ الفائق (١٢٣/٣) .

٢ تفسير الطبري (٥/١) .

والمُعتر فأووه ، والباغي فتأووه ^١ ..

ونسب (الرافي) له قوله : « والشاءِ وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجمعون .

وقوله : « الفيلُ ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وويل ، وخرطوم طويل » . وروي انه « جعل يسجع لهم الأساجيع ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا ^٢ ، أو انه قال : « ألم ترَ الى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى ^٣ . روي انه قال هذه الآيات لسجاح لما أراد الدخول بها ، فقالت : « وماذا أيضاً ؟ قال : أوحى إليّ : ان الله خلق النساء أفرأجاً ، وجعل الرجال لمن أزواجاً ، فنولج فيهن قُعباً إبلأجاً ، ثم نخرجها اذا نشاء إخراجاً ، فينتجن لنا سخالاً انتأجاً . قالت أشهد انك نبي ، قال : هل لك أن أتزوجك فأكل بقومي وبقومك العرب ا قالت : نعم ، قال :

ألا قومي الى النيك فقد هُمي لك المضجع
وإن شئت ففي البيت وإن شئت ففي المخدع
وإن شئت سلقنساك وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع . قال بذلك أوحى إليّ . فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت الى قومها ، فقالوا : ما عندك ؟ قالت : كان على فاتبعته فتزوجته ، قالوا : فهل أصدقتك شيئاً ؟ قالت : لا ، قالوا : ارجعي اليه ، فقيبح بمثلك أن ترجع بغير صداق ! فرجعت ، فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن ، وقال : ما لك ؟ قالت أصدقتي صداقاً ، قال : من مؤذذك ؟ قالت : شيب بن ربيعي

١ تاريخ آداب العرب (١٧٩/٢) .
٢ سيرة ابن هشام (٣٤١/٢) ، (حاشية على الروض) ، ابن كثير ، البداية (٢٢٦/٦) ، الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .
٣ الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .

الرياحي ، قال : عليّ به ، فجاء ، فقال : نادِ في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر ^١ . وأما (سيف) فذكر انه صالحها « علي أن يحمل اليها النصف من غلات اليامة ، وأبت إلا السنة المقبلة يسلفها ، فباح لها بذلك ، وقال : خلفي على السلف من يجمعه لك ، وانصرفني أنت بنصف العام ، فرجع فحمل اليها النصف ، فاحتلمته وانصرفت به الى الجزيرة ^٢ .

وذكر أن (سجاح) لما دخلت قبة (مسيلمة) ، « قالت له : اخبرني بما يأتيك به جبريل ؟ فقال لها : اسمعي هذه السورة : انكن معشر النساء خلقتن أمواجاً ، وجعل الرجال لكن أزواجاً ، يولجن فيكن إيلاجاً ، لا ترون فيه فتوراً ولا إعوجاجاً ، ثم يخرجونه منكن إخراجاً ، فقالت له : صدقت ، والله إنك لنبي مرسل » ، وهي قصة أخذت من موارد سابقة ، مثل الطبري ، غير أنها غيرت فيها بعض التغيير ، تنتهي بأنه رفع عن قومها صلاة العشاء والصبح لأجل المهر ^٣ .

وزعم أن « من قرآن مسيلمة الذي يزعم أنه نزل عليه ، لعنة الله عليه : والنازعات نزعاً ، والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والنداريات ذرواً ، فالطاحنات طحناً ، والنزازلات نزلاناً ، فالجامعات جمعاً ، والمعاجنات عجناناً ، فالخابزات خبزاً ، والشاردات ثرداً ، فالآكلات أكلاً ، والماضغات مضغاً ، فالبالعات بلعاً ^٤ .

وقد اتخذ قتل (مسيلمة) فخراً ، فادعى قتله بنو عامر بن لؤي ، وادعى بعض الخزرج قتله ، وادعى (بنو النجار) قتله ، وادعى (حبشي) قاتل حمزة قتله ، وكان (معاوية يدعي قتله) ويدعي ذلك له (بنو أمية) . وذكر أن (عبد الملك بن مروان) قضى لمعاوية بقتل مسيلمة ^٥ ، وهو قضاء سياسي لا أصل له بالطبع .

١ الطبري (٢٧٣/٣) وما بعدها .

٢ الطبري (٢٧٥/٣) .

٣ نزهة الجليس (٤٧٣/١) وما بعدها .

٤ نزهة الجليس (٤٧٤/١) .

٥ البلاذري ، فتوح (٩٩) .

ويظهر ان بني حنيفة بقوا على تعلقهم بمسيلمة ، حتى بعد مقتله وذهاب أمره . ففي خبر ينسب الى (ابن مُعَيَّر) السعدي انه مر على مسجد بني حنيفة ، فسمعهم يذكرون (مسيلمة) ، ويزعمون انه نبي ، فأتى (ابن مسعود) فأخبره ، فبعث اليهم الشرط ، فجاءوا بهم فاستتابوا فخلوا عنهم ، وقدم (ابن النواحة) فضرب عنقه^١ . هذا ، ويدل تعلق (بني حنيفة) وغيرهم من عرب الياصرة بمسيلمة ، واسمائتهم في الدفاع عنه ، وتذكيرهم له حتى بعد هلاكه ، على انه كان شخصية مؤثرة قوية ، سحرت أتباعها ، حتى انقادوا له هذا الانقياد . وقد نص (ابن حجر) على قتل (ابن مسعود) لابن النواحة ، إلا انه لم يذكر ان ذلك كان بسبب اعتقاده بنبوته (مسيلمة) ، وانما ذكر انه « كان قد أسلم ثم ارتد فاستتابه عبدالله بن مسعود ، فلم يتب فقتله على كفره وردته »^٢ . واسم (ابن النواحة) (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة^٣ .

ويروى ان (الأخطل) الضبي ، قال في مسيلمة :

لهفأ عليك أبا ثمامة لهفأ على ركني^٤ شمامه
كم آية لك فيهم كالبرق يلمع في غمامه

وكان (الضبي) شاعراً ، زعم انه ادعى النبوة ، وكان يقول : لضر صدر النبوة ، ولنا عجزها ، وقد ضرب عنقه (عمر بن هبيرة) ، ومن شعره :

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل متى جعل الله الرسالة تُرتباً^٥

أي راتبة في واحد .

وسئل (الأحنف بن قيس) رأيه في مسيلمة ، فقال : « ما هو بني صادق ولا بمنبيء حاذق »^٥ .

١ الفائق (٦٠٣/١) ، الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .

٢ الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .

٣ البلاذري ، فتوح (٩٧) .

٤ المؤلف (٢٢) .

٥ أمالي المرتضى (٢٩٢/١) .

وأنا لا استبعد ما نسب الى (مسيلمة) من دعوى نزول الوحي عليه ، وتسمية ذلك الوحي (قرآناً) أو كتاباً أو سفرأ ، أو شيئاً آخر ، ولكنني استبعد صحة هذه الآيات التي نسبتها الكتب اليه ، وأرى أن أكثرها ورد بطريق آحاد ، فلما نقلها الخلف عن السلف ، وكثر ورودها في الكتب ظهرت وكأنها أخبار متواترة ، وصارت في حكم ما أجمع عليه . وقد رويت بعض الآيات مثل : آية الضفدع ، بصور متعددة مختلفة ، مع أنها أشهر وأعرف آية أو آيات نسبت اليه ، فما بالك بالآيات الأخرى ، ثم إننا نجد الرواة يتناقضون أنفسهم كثيراً فيما نسبوه اليه ، وبعضه مما لا يعقل صدوره من مسيلمة ، مثل شعره الذي قاله لسجاح ، حين أراد الدخول بها . وهل يعقل أن يقول إنسان يدعي النبوة مثل هذا الكلام الفاحش أمام الناس ، ليدون ويسجل عليه !

وقد ذكر (ابن النديم) أن لابن الكلبي مؤلفاً خاصاً ألفه في مسيلمة دعاه : « كتاب مسيلمة الكذاب » ، لم يصل إلينا ، وله كتاب آخر في بني حنيفة اسمه : « كتاب أيام بني حنيفة » ، وهم قوم مسيلمة ، وكتاب دعاه : « كتاب أيام قيس بن ثعلبة »^١ .

وزعم أن من كلام (طليحة) الأسدي الذي قاله لأصحابه : « والحمام واليام ، والسرور والصوام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليلغن ملكنا العراق والشام »^٢ .

وروى (الطبري) سجعاً من سجع (سجاح) ، وكانت نصرانية راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم تغلب ، هو قولها لأتباعها : « عليكم باليامة ، ودفوا ديف الحامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » ، فلما جاءت مع قومها اليامة ، قال لها مسيلمة : « لنا نصف الأرض ، وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش ، فحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحل النصف الى نخيل تراها كالسهف . فقال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذ طمع ، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع . رأكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة

١ الفهرست (ص ١٤٨) .

٢ الطبري (٣ / ٢٦٠) ، (دار المعارف) .

خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء
ولا فجّار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبار ، رب الغيوم
والأمطار .

وقال أيضاً : لما رأيت وجوههم حسنت ، وأبشارهم صفت ، وأيديهم
طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار
تصومون يوماً ، وتكلفون يوماً ، فسبحان الله ! اذا جاءت الحياة تحيون ، والى
ملك السماء ترقون ! فلو انها حبة خردلة ، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ،
ولأكثر الناس فيها الثبور .

وكان مما شرع لهم مسليمة ان من أصاب ولداً واحداً عقباً لا يأتي امرأة الى
أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابناً ثم يمك ، فكان قد حرّم
النساء على من له ولد ذكر^١ .

وبلاغة الكلام معروفة عند الجاهليين ، فقد كانوا يتعتون المتكلم الجيد بالبليغ ،
وفي القرآن الكريم : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً »^٢ . والبليغ الفصيح الذي
يبلغ بعبارة كنه ضميره ونهاية مرامه^٣ . سأل (معاوية) (صحار بن عياش)
العبدي^٤ ، ما البلاغة ؟ فقال : لا تخطيء ولا تبطيء . أو أنه قال له : ما
البلاغة ؟ قال : الإيجاز . قال : ما الإيجاز ؟ قال : أن لا تبطيء ولا تخطيء .
وكان قد دهش من فصاحته وبلاغته ، فقال له : ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال :
شيء يختلج في صدورنا فننقذه كما يقذف البحر بزبدته^٥ .

وقد ميز (الطبري) وغيره من العلماء بين الخطباء وبين النصحاء والبلاء ،
فالخطباء هم من جماعة صنّاع الكلام ، وصناعتهم صناعة الخطب ، وذكر بعدهم
(البلاء) ، صنّاع البلاغة ، ثم (الشعر) والفصاحة ، فجعل للشعر في مقابل
الفصاحة ، ثم السجع والكهانة ، وقال : « كل خطيب منهم وبليغ ، وشاعر منهم

- ١ الطبري (٢٧١/٣ وما بعدها) .
- ٢ النساء ، الرقم ٤ ، الآية ٦٢ .
- ٣ تاج العروس (٤/٦) ، (بلغ) .
- ٤ « صحار بن عباس ؟ » .
- ٥ تاج العروس (٥/٦) ، (بلغ) ، الاصابة (١٧٠/٢) ، (رقم ٤٠٤١) .

وفصيح «^١»، فالخطيب هو الذي يخطب باسم الوفد أو القوم ، وله لذلك عندهم مقام جليل ، لأنه عقل من يتكلم باسمهم ولسانهم ، والبلغ من يتحدث ويتكلم في المجالس والأندية ، بكلام بليغ رصين ، والفصيح من يفصح ويعرب بلسانه، ويجدهم يقولون أحياناً خطيب فصيح ، وشاعر فصيح ، فالفصاحة صفة تلحق بالمتكلم نائراً كان أو كان شاعراً .

ولبيان عند العرب مقام كبير . وقد أشاد القرآن بالبيان ، فقال : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان »^٢ . فجعل البيان في جملة ما علمه الله الانسان . ونعت القرآن بأنه نزل « بلسان عربي مبين »^٣ ، ووصف القرآن بقوله : « طس، تلك آيات القرآن وكتاب مبين »^٤ . وينسب الى الرسول قوله : « إن من البيان لسحراً »^٥ . وورد في المثل : « جرح اللسان كجرح اليد . هو في شعر امرئ القيس » . يضرب في تأثير الوقعية^٦ ، وفي أثر القول في فعل الناس .

وروي أن ذوي الفهم والعلم من قريش تأثروا ببلاغة القرآن وفصاحته، فروي أن (الوليد بن المغيرة) ، وكان من بلغاء قريش وفصائحهم ومن علمائهم بالشعر، لما دخل على (أبي بكر) يسأله عن القرآن « فلما أخبره خرج على قريش . فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهندي من الجنون » ، أو أنه قال لما سمع القرآن : « والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وان له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر » ، أو أنه قال : « سمعت قولاً حلواً أخضر مشمراً ، يأخذ بالقلوب . فقالوا : هو شعر . فقال : لا والله ما هو بالشعر ، ليس أحد أعلم بالشعر مني ، أليس قد عرضت عليّ الشعراء شعرهم ! نابغة وفلان وفلان . قالوا : فهو كاهن . فقال : لا والله ما هو بكاهن ، قد عرضت

- ١ تفسير الطبري (٥/١) .
- ٢ سورة الرحمن ، تفسير الطبري (٦٧/٢٧) .
- ٣ النحل ، الاية ١٠٣ ، الشعراء ، الاية ١٩٥ .
- ٤ النمل ، الاية ١ .
- ٥ البيان والتبيين (٣٤٩/١) ، العسكري ، جمهرة (١٣/١) .
- ٦ الزمخشري ، المستقصى (٥٠/٢٠) ، (رقم ١٨٧) .

عليّ الكهانة . قالوا : فهذا سحر الأولين اكتبه . قال : لا أدري إن كان شيئاً
فعمى هو اذا سحر يؤثر ^١ ، او أنه قال أشياء أخرى من هذا القبيل ، اتفقت
في المعنى والمقصد ، واختلفت في العبارات .

كما روي أن قوماً من قريش ومن غيرهم ، أسلموا بتأثير بيان القرآن عليهم ،
فقد روي ان (عمر بن الخطاب) أسلم على ما يقال حين سمع القرآن . روي
عنه انه قال : « خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد
سبقني الى المسجد ، فقممت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من
تأليف القرآن . فقلت هذا والله شاعر ، كما قالت قريش . فقرأ : انه لقول
رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . فقلت كاهن . قال :
ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون حتى ختم السورة . قال : فوقع الاسلام في
قلبي كل موقع ^٢ . وهي رواية تخالف ما جاء في خبر اسلامه ، من انه كان
قد خرج يريد قتل الرسول ، فتلقيه (نعيم بن عبدالله) النخام ، وكان من
المسلمين ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال له : « اريد محمداً هذا الصابىء
الذي فرق أمر قريش وسفه أعلامها ، وعاب دينها وسب آلهتها ، فاقتله » ،
فقال له (نعيم) : « أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل
بيتي ؟ قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت
الخطاب ، فقد والله أسلموا وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » ، فرجع عمر
عامداً الى اخته وختته وعندهما (خباب بن الأرت) معه صحيفة فيها (طه)
يقرئها اياها ، فلما سمعوا حس عمر ، أخذت (فاطمة) الصحيفة . فلما دخل
(عمر) ، قال : ما هذه الهينة التي سمعت ؟ قالوا : ما سمعت شيئاً ، ثم قال
لأخته : اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها أنظر ما هذا الذي جاء به محمد .
فأبت أخته اعطاءها إلا أن يغتسل ، فاغتسل عمر ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه)
فقرأها وتأثر بها فأسلم ^٣ .

- ١ تفسير الطبري (٩٨/٢٩ وما بعدها) ، سورة المدثر .
- ٢ الاصابة (٥١٢/٢) ، (رقم ٥٧٣٨) ، الروض الانف (٢١٨/١) ، ورووا له شعرا ، ذكروا أنه قال بعد اسلامه ، رواه « ابن اسحاق » الروض الانف (٢١٨/١) .
- ٣ ابن هشام (٢١٦/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٢١٦/١) .

وروا أن (سويد بن الصامت) ، صاحب صحيفة لقمان ، كان ممن أعجب بالقرآن ، ورووا أن (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل) ، وكان من أكابر قريش ومن علماء النسب ، قدم على النبيّ ، فسمعه يقرأ (الطور) ، فأثرت القراءة فيه ، وقد أسلم فيما بعد ، بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح^١ .

والفصاحة في معنى البلاغة ، فهي مرادف لها في الاستعمال . والفصيح هو الين في اللسان والبلاغة ، ولسان فصيح ، أي طلق^٢ . وقد اشتهر (قس بن ساعدة اليايدي) في الفصاحة حتى ضرب به المثل فيها ، فقيل : أفصح من قس ، وأنطق من قس^٣ ، وأبين من قس ، أي أفصح^٤ ، وأبلغ من قس . وقد ذكره (الأعمش) بقوله :

وأبلغ من قس وأجرأ من الذي بلدي الغيل من خفان أصبح خادرا

كما ذكره الخطيب بقوله :

وأبلغ من قس وأمضى إذا مضى من الريح إذ مسّ النفوس نكاهها

ونسبوا الى (قس) قوله ينصح ولده : « إنّ المعيا تكفيه البقلة . وترويه المذقة ، ومن عيرك شيئاً ففيه مثله ، ومن ظلمك وجد من يظلمه ، ومي عدلت على نفسك عدل عليك من فوقك ، وإذا نهيت عن شيء فانه نفسك ، ولا تجمع ما لا تأكل ، ولا تأكل ما لا تحتاج اليه ، وإذا ادخرت فلا يكوننّ كنترك إلا فعلك . وكن عف العيلة ، مشترك الغني ، تسد قومك . ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً ، وإن كان فهياً ، ولا مدعوراً وإن كان ناصحاً ولا تضرعن في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعها إلا يشق نفسك . وإذا خاصمت فاعدل ،

- ١ الاصابة (١ / ٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١ / ٢٣٢ وما بعدها) .
- ٢ تاج العروس (٢ / ١٩٧) ، (فصح) .
- ٣ الزمخشري ، المستقصى (١ / ٣٩٣) ، (رقم ١٦٧٧) .
- ٤ المصدر نفسه (١ / ٣٢) ، (رقم ٩٩) ، العسكري ، جمهرة (١ / ٢٤٩) ، (رقم ٣٣٦) .
- ٥ المستقصى (١ / ٢٩) ، (رقم ٨٨) .

وإذا قلت فاقصد. ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته ، فإنك إذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً ، وكان المستودع بالخيار في الوفاء والغدر ، وكنت له عبداً ما بقيت . وإن جنى عليك كنت أولى بذلك ، وإن وقى كان الممدوح دونك»^١.

وقد اشتهرت (إيراد) بالفصاحة والبيان ، وبقدرة في اللسان . وقد ظهر منهم جملة خطباء^٢ . واشهرت (بنو أسد) بالخطابة كذلك ، قال (يونس بن حبيب) : « ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ، أو شديد العدو »^٣ .

والآن ، وبعد أن انتهينا من الكلام على النثر ، نقول هل كان للجاهليين أدب مثور ؟ أي مدونات من الأدب المثور . لقد ذهب البعض الى انه لو كان للجاهليين أدب مثور مدون ، لعدّ عجباً اختفاء آثاره هذا الاختفاء الكلي ، حتى من أحاديث العرب المنقولة^٤ . والواقع ان من غير الممكن في الوقت الحاضر البت علمياً في هذا الموضوع ، لأننا لا نملك أدلة علمية ، لنستنبط منها أحكاماً تؤيد أو تنفي وجود التدوين في الجاهلية . أما مسألة عدم ورود نصوص أدبية مثورة إلينا ، أو عدم ورود إشارات الى وجودها في الجاهلية ، فإنها أمور لا يمكن أن تكون حجة على إثبات عدم وجود التدوين عند الجاهليين ، إذ لا يجوز أنها كانت ، ولكنها تلفت ، بسبب كونها كانت مكتوبة على مواد سريعة التلف ، فهلكت ، كما هلكت مدونات صدر الاسلام ، حيث لم يصل من أصولها إلا النزر اليسير ، وهو نزر يشك في أصالته وصحته .

وذهب بعض الى وجود أدب مثور ، إذ لا يعقل وجود أدب منظوم ، ثم لا يكون للعرب أدب مثور . ويتجلى طراز هذا الأدب في الأمثلة والحكم المنسوبة

-
- ١ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ، المصنوع في الادب (الكويت ١٩٦٠) ، (ص ١٧٩ وما بعدها) .
 - ٢ البيان والتبيين (٤٢/١ وما بعدها) .
 - ٣ البيان والتبيين (١٧٤/١) .
 - ٤ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (ص ٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العلم للملايين) ، (بيروت ١٩٦٤) .

الى الجاهليين . أما مؤلفات وكتب ، وصحف مدونة فلم يصل منها لنا أي شيء . ولكن ذلك لا ينفي عدم وجودها عند أهل الجاهلية . وقد تحدثت عن موضوع التدوين عند الجاهليين في موضع آخر من هذا الكتاب .

وللجاحظ رأي في كلام العرب ، فهو يرى أن « كل شيء للعرب وإنما هو بديهية وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجلالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام » فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده ، على حين يكون كلام العجم « عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب »^١ . وقد حصر أصناف البلاغة عند العرب بالقصيد والرجز ، وهما من الشعر ، وبالمثنور ، وهو الكلام المرسل ، وبالأسجاع ، وبالمزدوج وما لا يزدوج من الكلام^٢ .

أما موضوع وجود ترجمات جاهلية عربية للتوراة والانجيل والكتب الشرعية الأخرى المعتبرة عند أهل الكتاب ، فموضوع لم يتفق عليه الباحثون حتى الآن . نعم ورد في الأخبار أن الأحناف كانوا قد وقفوا على كتب الله ، وقرأوها بالعبرانية وبالسريانية ، وأنهم كتبوا بهما وبالعربية^٣ ، ولكن هذه الأخبار غامضة غير واضحة ، يجب أخذها بحذر ، كما ورد أن بعض الرقيق من أهل الكتاب ممن كان بمكة كان يقرأ كتاب الله ، وكانت قريش ترى رسول الله يمرّ عليه ويجلس عنده ويستمع إليه ، فقالت إنما يتعلم (محمد) منه^٤ ، ولكن الأخبار الواردة عن هذا الموضوع لا تشير الى أن هذا الذي زعم أنه كان يعلم الرسول ، كان قد دون ترجمته كتب الله ، أو تفاسيرها بالعربية ، وأن الناس قد وقفوا عليها .

وأما ما ورد من أمر (عمرو بن سعد بن أبي وقاص) (عمرو بن سعد

١ البيان والتبيين (٣ / ٢٨ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (٣ / ٢٩) .

٣ Georg Graf, Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, I, S. 34

٤ النحل ، الآية ١٠٣ ، تفسير الطبري (١٤ / ١١٩ وما بعدها) .

بر أبي وقاص (المذكور في تاريخ (ميخائيل السوري) (المتوفى سنة ١١٧٩ للميلاد) البطريق (البطريرك يوحنا) بطريق اليعاقبة ، ترجمة (الانجيل) من السريانية الى العربية ثم ما جاء من وقوع خلاف بين (عمرو) وبين (البطريارك) بشأن الترجمة ، ثم من استعانة (البطريارك) بعد ذلك برجال من (تنوخ) ، و (عاقولا) ، و (طيء) ، كانوا يتقنون العربية والسريانية للقيام بالترجمة . ولترجمة التوراة ، مع رجل يهودي ، فإنه خبر غير مؤكد ، وقد شك فيه بعض الباحثين ، وربما وضع للطعن في (البطريارك) ، وضعه خصومه عليه^١ .

ولم تأت جهود (بومشترك) وتلامذته بنتائج مؤكدة مقبولة عن اثبات وجود كتب للصلاة بالعربية ، ترجمت من السريانية اليها قبل الاسلام^٢ . ومن المحتمل أن رجال الدين كانوا يعظون نصارى العرب في الجاهلية بالعربية ، أما نصوص الصلاة ، فكانوا يلقونها عليهم بالسريانية . وربما كان الحال على هذا المنوال بالنسبة الى رجال الدين المتقنين مع الأعراب ، فقد كانوا يتقنون معهم ، يعلمونهم ويرشدونهم بالعربية ، ولكنهم لم يكونوا قد ترجموا كتب الصلوات ترجمة مدونة بلغتهم . وقد ورد ان رجال الدين كانوا يحملون (الدفة) معهم ، حيث تحل القبائل ، لترتيل الصلوات على المذابح المتقلة ، فعل ذلك رجال الدين مع (بني ثعلب) وقبائل من اليمن وغيرها^٣ . وينطبق ما أقوله على العرب الجنوبيين أيضاً ، فلم يعثر حتى الآن على دليل يثبت وجود ترجمات بعربية جنوبية للتوراة أو الإنجيل أو الكتب الدينية الأخرى . ولكن هناك أخباراً يذكرها أهل الأخبار تشير الى وجود مثل هذه الترجمات ، غير اننا لا نتمكن من التسليم بها ، لما فيها من عناصر تدعو الى الشك في أمرها وعدم إمكان الأخذ بها في الوقت الحاضر .

Michael der Syrer, chronique de Michel le Syrien, II, p. 326, Paris, 1855, ١

Georg Graf, I, 35, F. Nau, un Colloque du Patriarche Jean avec l'emir des Agaréens in Journal Asiatique, II, Ser., 5, (1915), 225 - 279.

وقد جعله « عمرو بن العاص » ، وجعله « لامانس » « سعيد بن عامر » .

Islamic, 4 (1931), 562. ff. ٢

Georg Graf, I, S. 38. ٣

وقد ورد ان عرب بلاد الشام من نخم وجندام وغسان وقضاة وتغلب وكلب وغيرهم ، « وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية »^١ ، وقُصد بالعبرانية السريانية ، ولهذا لم يأخذ علماء اللغة عنهم . غير أنهم لم يسيروا الى ما كانوا يقرأون ، ويظهر أنهم قصدوا بذلك الصلوات والكتب المقدسة ، يقرأونها عليهم بالسريانية وربما ترجموا ما قرأوه عليهم الى العربية .

١ الزهر (٢١٢/١) .

الفصل الثالث والاربعون بعد المئة

الخطابة

والخطابة وجه آخر من أوجه النشاط الفكري عند الجاهليين . وقد كان للخطيب عندهم ، كما يقول أهل الأخبار ، مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته في الدفاع عن قومه والذب عنهم والتكلم باسمهم ، فهو في هذه الأمور مثل الشاعر ، لسان القبيلة ووجهها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء ، اشتهروا بقوة بيانهم وبسحر كلامهم ، وأوردوا نماذج من خطبهم . ومنهم من اشتهر بنظم الشعر ، وعد من الفحول ، مثل عمرو بن كلثوم^١ .

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر^٢ . وذكروا ان الشعراء كانوا في أرفع منزلة عند العرب ، وما زال الأمر كذلك حتى أفضى الشعر الى قوم اتخذوه أداة للتكسب وسعوا به في كل مكان ، فوضعوه أمام الملوك والسوقة ، سلعة في مقابل ثمن ، واستجداء لأكف الناس ، فأنف منه الأشراف وتجنبه السادة ، ونهت الخطابة . وصار للخطيب شأن كبير ، ارتفع على شأن الشاعر . ولخص (الجاحظ) ذلك بقوله : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر

١ بلوغ الارب (١٧٤/٣) .

٢ البيان والتبيين (١١٤) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوتهم ومن غزاهم ،
ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويباهم شاعر غيرهم فيراقب
شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوق ،
وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر^١ .

وكانوا يحبون في الخطيب أن يكون جدير الصوت ، ويذمون الضئيل الصوت .
وأن يكون مؤثراً شديداً التأثير في نفوس سامعيه حتى يسحرهم ويأخذ بالباهم .
وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء ألسنتهم الناطقة إذا تفاخروا أو حضروا المجالس
أو تفاوضوا في أمر ، أو أرادوا تأجيج نيران الحروب ، أو عقد صلح ، أو
البت في أي أمر جليل . ولذلك صارت الخطابة من امارات المتزلة والمكائنة ،
فصارت في ساداتهم وأشرفهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام .

وقد ذكر (الجاحظ) ، أن حمل العصا المخصرة دليل على التأهب للخطبة .
والتهيؤ للإطناج والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصود عليهم ،
ومنسوب اليهم . حتى أنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم ، إلفاً لها ،
وتوقفاً لبعض ما يوجب حملها : والإشارة بها^٢ . ولا يخطب أحدهم إلا وعنده
عصاً أو مخصرة ، جرى على ذلك عرفهم حتى في الاسلام . قال عبد الملك
ابن مروان : لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي ، وأراد معاوية
سحبان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة^٣ . وكانوا يعتمدون على
الأرض بالقسي ، ويشيرون بالعصا والقنا ، ومنهم من يأخذ المخصرة في خطب
السلم ، والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب . وذكر أن من عوائدهم أن
يكون الخطيب على زي مخصوص في العمامة واللباس^٤ . وأن يخطب الخطيب وعلى
رأسه عمامة ، علامة المكائنة والمتزلة عند الجاهليين . وذكر أيضاً أن من عوائدهم
ألا يخطب الخطيب وهو قائد إلا في خطبة النكاح . كما ذكر أن منهم من كان

١ البيان والتبيين (٢٤١/١) .

٢ البيان والتبيين (٦١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية
١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (١١٧/٣) ، (هارون) .

٣ البيان والتبيين (١١٩/٣) وما بعدها) .

٤ بلوغ الأرب (١٥٢/٣) وما بعدها) ، البيان (٣٧٠/١) وما بعدها) .

يخطب وهو على راحلته^١ . وذكر (الجاحظ) أن الشعوبية طعنت على « أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيبي ، والانتكاء والاعتداد على القوس ، والخذل من الأرض ، والإشارة بالقضيبي » . وذكر أن من المستحسن في الخطيب أن يكون جهوري الصوت ، قليل التلفت ، نظيف البزة ، وأن يخطب قائماً على نشز من الأرض ، أو على راحلته ، وأن يحتجز عمامته ، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة^٢ .

وقد كان بين الخطباء من كان يقول الشعر بالإضافة الى علو شأنه بالنثر. غير ان العادة ، ان الشعراء لم يبلغوا في الخطابة مبلغ الخطباء ، وأن الخطباء دون الشعراء في الشعر . « ومن يجمع الشعر والخطابة قليل »^٣ . ومن الشعراء الخطباء: (عمرو بن كلثوم) التغلبي ، و (زهير بن جناد) ، و (لييد)^٤ ، و (عامر ابن الطرب العدواني)^٥ .

وذكر (الجاحظ) ان العرب استعملت الموزون ، والمقفى ، والمنثور في مساجلة الخصوم ، والرجز ، في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط وبعث همة ، وعند مجازاة الخصم ، وساعة المشاورة ، وفي نفس المجادلة والمحاورة ، واستعملت الأسجاع عند المناقرة والمفاخرة ، واستعملت المنثور في الأغراض الأخرى^٦ ، وقال أيضاً: « وكل شيء للعرب فإنما هو بدية وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ،

١ البيان (١١٨/١) ، (٢٠/٢) .

٢ البيان والتبيين (٢٢) ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر ، المطبعة الكاثوليكية) ، البيان والتبيين (٦/٣ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (٤٥/١) .

٤ . ومن شعر لييد ، قوله :

وأخلف قسا ليتني ولو أنني
البيان والتبيين (١٨٩/١ ، ٣٦٥) .

٥ البيان والتبيين (٣٦٥/١) .

٦ البيان والتبيين (٦/٣ وما بعدها ، ٢٨) .

وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، ويحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتلدى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب^١.

ويظهر ان من الخطباء من استعمل السجع في خطبه ، ولا سيما في المفاخرات والمنافرات وأمور التحكيم^٢ ، وهو في الغالب . ومنهم من كان يستعمل الكلام المرسل وذلك في الأمور الأخرى . ولغلبة السجع على الخطب ، قال بعض علماء اللغة : « الخطبة عند العرب : الكلام المنشور المسجع ونحوه »^٣.

وقسم (الجاحظ) الخطب على ضربين ، فقال : « اعلم ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين ، منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ، ومتشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذات الفِقر الحسان والتف الجياد . وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف . ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواة العلم الى حفظها أسرع »^٤.

وقد اقتضى النظام الاجتماعي والسياسي في الجاهلية أن يقيم العرب للخطابة وزناً خاصاً في المفاوضات السّتي تكون في داخل القبيلة للنظر في أمورها وفي شؤونها الخاصة بها في أيام السلم وفي أوقات الغزو والغارات ، في حالي الهجوم والدفاع . وأقاموا لها وزناً خاصاً بالمناسبة للمفاوضات التي جرت بين القبائل ، أو بين القبائل والملوك . ثم في المفاخرات وفي المنافرات . فكل هذه الأمور وأشباهها استدعت ظهور أناس بلغاه اعتمدوا على حسن تصرفهم في تنظيم الكلم وفي تنسيق الجمل وفي التلاعب بالألفاظ للتأثير على القلوب والأخذ بمجامع الأبواب . فرب كلمة كانت تقيم قبيلة وتقدها لتلاعب الخطيب بقلوبها بسحر بيانه وفي كيفية اختيار ألفاظه واستخدامه مواضع الإثارة التي يعرف أنها ستثير النار الدفينة في أفئدة سامعيه.

- ١ البيان والتبيين (٢٨/٣ وما بعدها) .
- ٢ ابيان والتبيين (٢٩٠/١) .
- ٣ تاج العروس (٢٣٨/١) ، (خطب) .
- ٤ البيان والتبيين (٧/٢) .

ولهذا كانوا لا يختارون لمن يتكلم باسم قومه إلاّ من عرف بسحر لسانه وقوة
بيانه، ليتمكن بما وهب من مرونة وتفنن في كلامه من التغلب على خصمه وافحامه،
ولما مات (أبو دليجة) (فضالة بن كلدة) رثاه (أوس بن حجر) بكلمة
مؤثرة تعبر عن مبلغ شعوره وشعور قومه للفاجعة الأليمة التي جعلت قوم الخطيب
في لبس ولبال ، لعدم وجود من سيحل محله في الدفاع عنهم ، اذ حفلوا لدى
الملوك ، فيقول :

أبا دليجة من يكفي العشرة إذّ أسوا من الخطب في لبس ولبال
أم من يكون خطيب القوم إذّ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وافصال

وندخل في الخطباء جماعة عرفت بإلقاء المواعظ والنصائح في أمور الدين
والأخلاق والسلوك وفي التفكير ، وهم قوم تأثروا بالمؤثرات الثقافية التي كانت
في أيامهم بسبب وجود اليهود والنصارى بينهم، وبسبب اتصالهم بالرهبان والمبشرين
في داخل جزيرة العرب وفي خارجها ، فأخذوا يحثون قومهم على التعقل والتأمل
والتفكير في أمور دينهم ودنياهم ، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والتقرب
الى الأوثان ، وهي حجارة صلبة ، أو من خشب أو معدن لا يسمع ولا يجيب.
وينسب اليهم ، أنهم كانوا على دين ابراهيم، على السنة العربية الأولى دين الفطرة
دين التوحيد . وينسب اليهم أيضاً ، أنهم كانوا يقرأون ويكتبون ، لا بالعربية
وحدها ، بل بالعبرانية والسريانية أيضاً ، وأنهم كانوا يتدارسون التوراة والانجيل
وكتب الأنبياء ، الى غير ذلك من دعاوى قد تكون وضعت عليهم . وهم قوم
سبق أن تحدثت عنهم ، وقلت عنهم أنهم الأحناف .

وإذا درسنا الأغراض التي توخاها أهل الجاهلية من الخطابة ، نجدتها تكاد
تتجمع في الأمور الآتية : التحريض على القتال، وإصلاح ذات البين، ولمّ شعث ،
لكثرة ما كان يقع بينهم من تنافر وتشاحن ، ثم السفارات الى القبائل أو الملوك،
لأغراض مختلفة ، مثل التهئة والتعزية ، أو طلب حاجة ، وحلّ معضل ، أو
إنهاء خصومة ، ثم الجلوس لحلّ الديات وإنهاء نيران الثأر ، ثم التفاخر والتنافر
والتباهي بالأحساب والأنساب والمآثر والجاه والمال ، ثم في الوفادات حيث تقتضي

١ كارلو نالينو (٩٨) ، ديوان أوس (١٠٣) ، نقد الشعر لقدماء (٣٥) .

المناسبة لإلقاء الخطب ، أو في الحث على التعقل والتفكير وتغيير رأي فاسد ، كما في خطب قس بن ساعدة الإيادي وفي خطب الأحناف ، ثم في المناسبات الأخرى مثل تعداد مناقب ميت ، أو خطب الإملاك وما إلى ذلك .

ومن أشهر الخطب المنسوبة إلى الجاهليين ، الخطب التي زعم أن (أكثم بن صيفي) ، و (حاجب بن زرارة) ، وهما من (تميم) ، و (الحارث بن ظالم) ، و (قيس بن مسعود) ، وهما من (بكر) ، و (خالد بن جعفر) ، و (علقمة بن علاثة) ، و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر) ، قالوها في مجلس كسرى ، يوم أرسلهم (النعمان بن المنذر) إليه ، ليريه درجة فصاحة العرب ومبلغ بيانهم وعقلهم ، مما أثار إعجاب (كسرى) بهم ، حتى عجز عن تفضيل أحدهم على الآخر ، مما جعله يقر ويعترف بذكاء العرب وبقوة بيانهم وبقوة عقلهم ، فقبرهم لذلك حق قدرهم وأكرمهم . وهي خطب مصنوعة موضوعة ، قد تكون من وضع جماعة أرادت بها الرد على الشعوبيين الذين كانوا ينتقصون من قدر العرب ، ومن لسان العرب ، ومن دعوى الإعجاز في لغتهم ، فصنعت هذا المجلس ، وعملت تلك المحاور والخطب في الرد عليهم ، وهي تتناول صميم ذلك الجدل .

وأكثر ما نسب إلى زيد وأمثاله من الأحناف مختلف ، وضع عليهم فيما بعد . وأكثر ما ورد عنهم في شرح حياتهم هو من هذا النوع الذي يحتاج إلى إثبات . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من الجاهليين قالوا عنهم إنهم كانوا ممن خطبوا الجاهلية المشهورين المعروفين ، وقد أدخلوا بعضهم في المعمرين . والمعمر في عرفهم من بلغ عشرين ومئة سنة فصاعداً ، وإلا ، لم يعدوه من المعمرين^١ . وعلى رأس من ذكروا : (دويد بن زيد بن نهد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميري) ، فهو إذن من حمير . وقد ذكر أنه عاش أربع مئة سنة وستاً وخمسين سنة ، ونسبوا إليه وصية أوصى بها بنيه^٢ . ولكنهم لم يذكروا متى عاش ، وفي أي زمان مات ، وكيف أوصى بنيه بهذه اللهجة الحجازية ، لهجة القرآن الكريم ، وهو من حمير ، وحمير لها لسانها وكتابتها .

١ بلوغ الأرب (١٥٧/٣ وما بعدها) .

٢ بلوغ الأرب (١٥٧/٣ وما بعدها) .

وذكر أهل الأخبار اسم (زهير بن جناب بن هبل) في ضمن المشهورين في قوة البيان والفصاحة والمنطق عند الجاهليين ، ويذكرون أنه كان على عهد (كليب ابن واثل) ، وأنه كان لسداد رأيه كاهناً ، ولم تجتمع قضاة إلا عليه وعلى (رزاح بن ربيعة) ، وقالوا إنه : « كان سيد قومه وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم »^١ . وقد ذكروا له وصية أوصى بها بنيه ، وأبيات شعر ، زعموا أنه نظمها .

وذكروا أيضاً (مرثد الخير بن ينكف بن نوف بن معديكرب بن مضحى) ، زعموا أنه كان قبلاً حديباً على عشيرته ، محباً لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء وأخطب الخطباء ، وزعموا أيضاً أنه أصلح بين القبيلين : (سبيع بن الحرث) و (ميثم بن مثوب بن ذي رعين) ، وأوردوا ما دار بينهم من نقاش وحوار^٢ ضبطوه وسجلوه ، حتى لكان كاتب ضبط كان حاضراً بينهم كلف تسجيل محضر ذلك الحديث .

وعدّ (الحارث بن كعب المدحجي) من هذه الطبقة البليغة التي اشتهرت بسحر البيان . وقد زعم أهل الأخبار أنه كان على دين (شعيب) النبي ، وهو دين لم يكن قد دخل فيه غيره وغير (أسد بن خزيمعة) و (تميم بن مر) . وقد ذكروا له وصية لأبنائه ، أوصاهم بها حين شعر بدنو أجله ، بعد أن عاش على زعمهم ستين ومئة سنة^٣ .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن هذا الدين ، دين شعيب . وليس في الوصية المنسوبة اليه ما يميزه عن غيره من الخطباء ، مثل قس بن ساعدة الايادي أو غيره من المتألهين الرافضين لعبادة الأوثان .

وعدّ علماء الأخبار كعب بن لؤي في جملة الخطباء القدماء ، وذكروا انه كان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر . وكان رجلاً طيباً خيراً ،

١ الاغاني (٩٣/٢١ وما بعدها) . بلوغ الارب (١٥٩/٣) .

٢ بلوغ الارب (١٦١/٣ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (١٦٤/٣) .

فلما مات ، أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل^١ .

وكان ابن عمار عمرو بن عمار الطائي خطيب مذبح كلها ، وكان شاعراً كذلك ، فبلغ النعمان حسن حديثه ، فاستدعاه ، وحمله على منادمته . وكان النعمان أحر العينين والجلد والشعر ، وكان شديد العريضة ، قتالاً للندماء ، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته ، ولكنه لم ينته ، فلما قتله النعمان ، رثاه أبو قردودة ، وهجا النعمان^٢ .

وعدوا (عبد المطلب) في جملة خطباء قريش ، الذين كانوا يخطبون في الملأ وفي الأمور العظيمة ، وكان وافد أهل مكة على ملوك اليمن ، فإذا مات ملك منهم ، أو تولى ملك منهم العرش ، ذهب الى اليمن معزياً ومهنثاً . فهو خطيب القوم اذن^٣ .

ومن خطباء (غطفان) في الجاهلية : (خويلد بن عمرو) ، و (العُشراء بن جابر) من (بني فزارة) ، و خويلد خطيب يوم الفجار^٤ .

وأما بقية من ذكر أهل الأخبار من خطباء الجاهلية ، فهم : (أبو الطمّحان القبلي) ، واسمه حنظلة بن الشرقي من (بني كنانة بن القين)^٥ ، و (ذو الاصبع العدواني) وهو من حكام العرب كذلك^٦ ، و (أوس بن حارثة)^٧ ، و (أكثم ابن صفيي التميمي) ، وهو من حكام العرب أيضاً . وقد ذكر ان (يزيد بن المهلب) كان يسلك طريقته في خطبه ووصاياها^٨ ، و (عمرو بن كلثوم) ، وهو من الخطباء الشعراء البارزين في الفنين . وقد ذكروا له خطبة نصح ووصية ذكروا انه أوصى بها بنيه ، في الأدب والسلوك^٩ ، و (نعيم بن ثعلبة الكنانسي) ،

-
- ١ البيان (٣٥١/١) ، (هارون) .
 - ٢ البيان (٢٢٢/١) وما بعدها ، (٣٤٩) ، البيان والتبيين (٣٤٩/١) ، (هارون) .
 - ٣ الاشتقاق (٤٣) .
 - ٤ البيان والتبيين (٣٥١/١) .
 - ٥ بنوغ الارب (١٦٨/٣) وما بعدها .
 - ٦ بنوغ الارب (١٦٩/٣) وما بعدها .
 - ٧ بنوغ الارب (١٧٠/٣) وما بعدها .
 - ٨ بنوغ الارب (١٧٢/٣) وما بعدها .
 - ٩ بنوغ الارب (١٧٤/٣) .

وكان ناسئاً ، ينسئ الشهور ، وقيل : انه أول من نسأها . وكان يخطب في الموسم^١ ، و (أبو سيآرة العدواني) ، واسمه (عميلة بن خالد الأعزل)^٢ ، و (الحارث بن ذبيان بن لجأ بن منهب الياني)^٣ .

وفي الملمات والأوقات العصيبة وفي الوفدات على الملوك يُختار خيرة الخطباء المتكلمين المعروفين بأصالة الرأي وبسرعة البديهة والجواب ، لبييضوا الأوجه ، ويؤدوا المهمة على أحسن وجه . ولما قدم النعمان بن المنذر الحيرة ، بعد زيارته لكسرى ، وتفاخره عنده بقومه العرب ، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث الى أكرم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والى الحارث بن عباد (الحارث بن ظالم) ، وقيس بن مسعود البكريين ، والى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري ، وهم خيرة من عرفهم في أيامه بالأصالة في الرأي وبقوة البيان ، وطلب منهم الذهب الى كسرى والتكلم معه ، ليعرف عقل العرب وصفاء ذهنها . فذهبوا وتكلموا ، فأعجب بهم ، وقدرهم حق تقدير^٤ .

وذكر عن حاجب بن زرارة : أنه وفد على كسرى لما منع تميمياً من ريف العراق ، فاستأذن عليه ، وتحدث معه ، فأرضاه ، وأذن عندئذ لتميم أن يدخلوا الريف . وقد وفد ابنه عطارد على كسرى أيضاً بعد وفاة والده^٥ .

وأدرك (الربيع بن ضبيح الفزاري) الاسلام كذلك ، ويذكر أهل الأخبار أنه أدرك أيام عبد الملك بن مروان^٦ . وإذا كان هذا صحيحاً ، فيجب أن يكون قد عاش معظم أيامه في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان طفلاً ، أو شاباً ، وإن ذكر أهل الأخبار أنه كان من المعمرين .

- ١ بلوغ الارب (١٧٥/٣) وما بعدها .
- ٢ بلوغ الارب (١٧٦/٣) .
- ٣ بلوغ الارب (١٧٧/٣) وما بعدها .
- ٤ العقد الفريد (٤/٢) وما بعدها « وفود العرب على كسرى » .
- ٥ العقد الفريد (٢٠/٢) .
- ٦ بلوغ الارب (١٦٦/٣) ، أمالي المرتضى (١٨٣/١) ، الاقتضاب (٣٦٩) ، الدرر اللوامع (٢١٠/١) .

ومن الخطباء عطارد بن حاجب بن زرارة ، وقد خطب أمام الرسول^١ .
ومن خطباء غطفان في الجاهلية : خويلد بن عمرو ، والعشراء بن جابر بن عقيل^٢ .
وكان الأسود بن كعب ، المعروف بالكذاب العنسي ، الذي ادعى النبوة من
الخطباء كذلك^٣ .

وذكر أهل الأخبار اسم : (قيس بن عامر بن الظرب) ، و (غيلان بن
سلمة الثقفي) في جملة حكام العرب . وذكروا انه كان قد خصص يوماً له
يحكم فيه بين الناس ، ويوماً ينشد فيه شعره . وذكروا من حكام قريش عبد
المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وأبا طالب والعاص بن وائل^٤ .

وعدوا (قيس بن زهير العبيسي) من خطباء الجاهلية المعروفين ، وقد ذكروا
عنه انه جاور (النمر بن قاسط) بعد (يوم الهبأة) ، وتزوج منهم . ثم
رحل عنهم الى (غمار) ، فتنصر بها ، وعف عن المآكل ، حتى أكل الخنظل
الى ان مات^٥ . وله أمثلة مذكورة في كتب الأمثال^٦ . وقيل فيه : « أدهى من
قيس بن زهير » ، ومن أقواله : « أربعة لا يطاقون : عبد ملك ، ونذل شيع ،
وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجت » ، وله أمثال عديدة^٧ . وذكر انه طرد إبسلأ
لبنى زياد ، وباعها من عبدالله بن جدعان ، وقال في ذلك شعراً^٨ .

وأما (سحبان بن زفر بن إياس) المعروف بـ (سحبان بن وائل الباهلي) ،
فإنه خطيب ضرب به المثل في الفصاحة فيقال : (أخطب من سحبان وائل) ،
و (أفصح من سحبان وائل) ، و (أنطق من سحبان) ، و (أبلغ من
سحبان) ، لمن يريدون مدحه واعطائه صفة البيان . وذكر أنه عاش في الجاهلية

- ١ البيان (٣٢٨/١) .
- ٢ البيان (٣٥٠/١) وما بعدها .
- ٣ البيان (٣٥٩/١) .
- ٤ مجمع الامثال (٤١/١) .
- ٥ بلوغ الارب (١٦٥/٣) وما بعدها .
- ٦ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (٢٦٨/١ ، ٢٩٩) .
- ٧ جمهرة الامثال (٤٥٧/١) .
- ٨ جمهرة الامثال (٣٤٤/١) .

وعاش في الاسلام حتى أدرك أيام معاوية^١ . وقد عرف بخطبته (الشوهاء) ،
قيل لها ذلك لحسنها . وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب
خطيب^٢ . « وكان اذا خطب لم يعد حرفاً ولم يتلعم ، ولم يتوقف ، ولم يتفكر
بل كان يسيل سيلاً »^٣ . وقد ورد انه توفي سنة (٥٤ هـ)^٤ .

ذكر انه دخل على معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا ، لعلمهم
بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحي الجانون اني اذا قلت أما بعد اني خطيبها

فقال له معاوية : أخطب ، فطلب عصا ، فلما أحضرت له خطب جملة
ساعات ، فقال له معاوية : أنتَ أخطب العرب ، قال : أو العرب وحدها ،
بل أخطبُ الجن والانس .

وقد اشتهرت إباد وتميم بالخطابة وبشدة عارضة خطابها وبقوة بيانهم^٥ . وقد
ذكر ان معاوية ذكر تيمماً ، فقال : « لقد أوتيت تميم الحكمة ، مع رقة حواشي
الكلم »^٦ . وهناك قبائل أخرى أخرجت خطباء مشهورين ، نسبت اليهم خطب
بليغة . وقد يكون من الأعمال المفيدة النافعة ، وضع دراسة خاصة بعدد الخطباء
الذين نبغوا في القبائل ، وبدراسة خطبهم ، وبمساكن أولئك الخطباء ومهاجر
قبائلهم ، فإن دراسة علمية مثل هذه تعيننا كثيراً على الوقوف على تطور هذه
اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، والقبائل التي تكلمت بها سليقة^٧
وطبعاً .

وذكر (الجاحظ) أن شأن (عبد القيس) عجب ، « وذلك أنهم بعدد

-
- ١ بلوغ الارب (١٥٦/٣) ، تاج العروس (٢٩٤/١) ، (سحب) ، ثمار القلوب
(١٠٢ وما بعدها) .
 - ٢ البيان (٣٤٨/١) ، (لجنة) ، وعرفت خطبة قيس بن خازجة بالعذراء .
 - ٣ الاصابة (١٠٨/٢) ، (رقم ٣٦٦٣) .
 - ٤ كارلو نالينو (١١٨) .
 - ٥ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (٢٤٨/١ وما بعدها) .
 - ٦ البيان والتبيين (٥٣/١) .
 - ٧ البيان والتبيين (٥٤/١) .

مخاربة إياد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين ، وهم من أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة . وهذا عجب ^١ . وذكر (الجاحظ) أن (معاوية) كان يعجب من فصاحة (عبد القيس) ، ولما اجتمع بـ (صحار ابن العباس) (صحار بن العياش) ، المعروف بـ (صحار العبدي) ، عجب من بلاغته وفصاحته ، فقال له ، ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا ، فنقذفه كما يقذف البحر بزبدته . قال : فما البلاغة ؟ قال : أن تقول فلا تبطىء ، وتصيب فلا تخطىء ^٢ . وورد في (كتاب الحيوان) ، للجاحظ ، أنه قال له : « ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطىء ، وتقول فلا تخطىء ^٣ . وله كلام فيها يجب أن يقال عند تذكر الاحسان ^٤ .

وكان نسابة ، وله مع (دغفل) النسابة محاورات ^٥ . وقد ذكر (ابن النديم) ، أن له من الكتب : (كتاب الأمثال) ^٦ ، وقد أشاد (الجاحظ) بعلمه في الأنساب ، وذكره فيمن ذكر ممن ألف في كتب النسب ، من أمثال (ابن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) ، و (أبي اليقظان) ، و (أبي عبيدة) ، و (دغفل بن حنظلة) النسابة : و (ابن لسان الحمرة) ، و (ابن النطاح) اللخمي ^٧ .

وكان لبني عبد القيس ، اتصال بمكة قبل الاسلام ، لهم معها تجارة . يرسلون اليها التمر والملاحف والسياب والتجارة المستوردة من الهند . وقد أشير اليها في خبر إسلام (الأشج) : (أشج) عبد القيس ، واسمه (المنذر بن عائذ بن الحارث بن المنذر بن النعمان) العبدي . فقد أرسل ابن أخته (عمرو بن عبد القيس) .

-
- ١ البيان والتبيين وأهم الرسائل ، انتقاء الدكتور جميل جبر ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، المطبعة الكاثوليكية ، (ص ٢٤) .
 - ٢ الاصابة (١٧٠/٢) ، (رقم ٤٠٤١) ، البيان والتبيين (٩٦/١) ، المصون (١٣٩) .
 - ٣ الحيوان (٩٠/١) وما بعدها .
 - ٤ الحيوان (٣٦٧/٣) .
 - ٥ الاصابة (١٧٠/٢) ، (رقم ٤٠٤١) .
 - ٦ الفهرست (١٢٨) ، (المقالة الثالثة) .
 - ٧ الحيوان (٢٠٩/٣) .

الى مكة عام الهجرة ، ومعه تجارة من تمر وملاحف ، فلقبه النبي ، وهدها الى الاسلام ، وكان مثل قومه نصرانياً ، فأسلم ، وتعلم سورة الحمد واقرأ باسم ربك ، فلما باع تجارته وعاد ، أخبر خاله (الأشج) بإسلامه ، فأسلم وكنم إسلامه حيناً ، فلما كان عام الفتح ، خرج مع وفد من أهل (هجر) وعبد القيس ، وصل المدينة ، وقابل الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، فقدموا بلادهم ، وحوّلوا (البيعة) مسجداً^١ .

ومن اشتهر من (بني عبد القيس) بالخطابة والفصاحة : (صعصعة بن صوحان) العبدى ، وأخواه : (سيحان) و (زيد) . وقد شهد (صفين) مع (علي) ، وكانت له مواقف مع معاوية ، وقد مات في خلافته . وقال الشعبي كنت أعلم منه الخطب « ، وله شعر^٢ .

وذكر في أثناء تحدث أهل الأخبار عن (الردة) وادعاء (لقيط بن مالك) الأزدي النبوة ، ان (الحارث بن راشد) ، و (صيحان بن صوحان) العبدى جاءا على رأس مدد من (بني ناجية) و (عبد القيس) ، لمساعدة (عكرمة) و (عرفجة) ، و (جبير) ، و (عبيد) ، فاستعلاهم ، فلما وصل المدد انهزم (لقيط) ، وقتل ممن كان معه عشرة آلاف^٣ . ولعل (صيحان) هذا هو أخ (صعصعة بن صوحان) .

ومن منازل (عبد القيس) (دارين) و (الزارة) ، وكان بها رهبان وبيع^٤ ، ويظهر ان النصرانية كانت متفشية بين (عبد القيس) ، وردت اليها من العراق . وكان (بنو عبد القيس) من العرب المتحضرين بالنسبة الى أعراب البوادي ، ولهم اتصال بالعالم الخارجي ، وقد قام المبشرون بنشر الكتابة بينهم ، ولا بد وأن تكون كتابتهم بالقلم العربي الشمالي ، الذي كان يكتب به النصراني العرب . ونجد في قرى البحرين أناساً من مختلف الأجناس ، بسبب اتصالها بالبحر

- ١ الاصابة (١٧١/٢) ، (رقم ٤٠٤١) ، (٥/٣) ، (رقم ٥٩٠٣) .
- ٢ الاصابة (١٩٢/٢) ، (رقم ٤١٣٠) ، البيان (٩٦/١) ، جمهرة الامثال (١٤٤/٢) .
- ٣ الاصابة (١٩٣/٢) ، (٤١٣٣) .
- ٤ الاصابة (١٧١/٢) ، (رقم ٤٠٤١) .

وجيء الأقوام إليها من الهند وإيران والعراق ، فظهرت فيها ثقافة ، امتصت غذاءها من مختلف الثقافات .

وهناك من اشتهر بالخطابة وكان قريب عهد من الاسلام ، أو أدركه وأسلم ، منهم : (قس بن ساعدة الإيادي) . وقد رآه الرسول ، وسمعه يتكلم ، وهو راكب على جمل أورق . ويذكر أن الرسول قال : « يرحم الله قساً ، إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »^١ . وقد عدّه بعض الباحثين من النصارى ، ولكن معظم أهل الأخبار يرى أنه كان على الحنيفية ، أي على التوحيد ، لا هو من يهود ، ولا هو من النصارى^٢ .

وقد ذكر أهل الأخبار أنه « كان من حكماء العرب وأعقل من سمع به منهم وهو أول من كتب من فلان الى فلان ، وأول من أقر بالبعث من غير علم ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من قال : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر »^٣ . وأنه أول من خطب على شرف ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا^٤ . وكان أحكم حكماء العرب ، وأبلغ وأعقل من سمع به من إياد . وبه ضرب المثل في الخطابة والبلاغة^٥ . روي أن الرسول سمع كلام (قس ابن ساعدة) الإيادي ورواه ، ذكر (الجاحظ) أن رسول الله « هو الذي روى كلام (قس بن ساعدة) وموقفه على جملة بعكاز وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه »^٦ . وذكر في موضع آخر من كتابه (البيان والتبيين) أن الرسول قال : « رأيتُه يسوق بعكاز على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . »

١ بلوغ الأرب (١٥٥/٣) ، نزهة الجليس (٤٢٩/١) .

٢ المصدر نفسه .

٣ مجمع الامثال (١١٧/١) ، جمهرة الامثال (٢٤٩/١) .

٤ الاغانى (٤٠/١٤ وما بعدها) ، الخزائنة (٩٠/٢) ، (عيد السلام محمد هارون) .

٥ نمار القلوب (١٢١ وما بعدها ، ١٢٧) .

٦ البيان والتبيين (٥٢/١) .

وهو القائل في هذه : آيات " محكمات ، مطر " ونبات ، وآباء وأمهات ،
وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر وأثام ، ولباس ومركب ، ومطعم ومشرب ،
ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ،
وسماء ذات أبراج . ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ،
أم حبسوا فناموا .

وهو القائل : يا معشر إباد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد . أين
المعروف الذي لا يشكر ، والظلم الذي لم يذكر ، أقسم قس قسماً بالله ، إن لله
ديناً هو أرضى له من دينكم هذا .
وأنشدوا له :

في الداهين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها بصائر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابسر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم ضائراً

وقد اشتهر قس بخطبته التي خطبها بسوق عكاظ ، وبآيات من الشعر رويت
عن (أبي بكر الصديق) . وبفصاحته وبلاغته ضرب المثل ، فقيل : « أبلغ من
قس »^٢ . وقد استشهد ببعض شعر (قس) في كتب الشواهد^٣ . وذكر أنه أول
من قال : أما بعد في العرب .

وفي رواية من روايات أهل الأخبار : أن أول من قال : « أما بعد » ،
هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة^٤ . زعيم
قريش ، وأحد خطبائها المشهورين .

- ١ البيان والتبيين (٣٠٨/١) .
- ٢ مجمع الامثال (١١٧/١) ، البيان والتبيين (٣٠٩/١) .
- ٣ الخزائن (٢٦٣/١) ، (بولاق) .
- ٤ المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٤١) ، الخزائن (٣٤٧/٤) ، (بولاق) ،
(الشاهد السابع والستون بعد الثمانمائة) .

وذكر بعض أهل الأخبار : أنه قيل لقُس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة :
قال : معرفة الرجل نفسه ، قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند
علمه . قيل له : فما أفضلُ المرءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه^١ .

وقد وردت في الخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة الإيادي هذه الجملة : « إن
في السماء خبراً » . ويلاحظ أن العبرانيين كانوا يراقبون السماء لأخذ الأخبار عما
سيقع لهم من أحداث منها . وقد تخصص بذلك نفر منهم ، عرفوا ب (خبري
شمايم) ، أي المخبرون عما يقع في السماء ، و (قيرى شمايم) ، أي قراء
السماء^٢ . وكان العرب يراقبون السماء كذلك ، استطلاعاً للأخبار ، وفي الجملة
المنسوبة الى (قس) تعبير عن ارتقابه وقوع أمر مهم .

و (قس) من المعمرين ، زعم بعض أهل الأخبار أنه عمر سبعائة سنة ،
وزعم بعض آخر أنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، « وقال المرزباني : ذكر كثير
من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة » . وقال بعضهم انه أدرك نبينا ، وسمعه ،
وجعله بعضهم في الصحابة ، وأماته بعضهم قبل البعثة . وقال قوم إنه
أول من آمن بالبعث من أصل الجاهلية^٣ . وفي الذي يرويه أهل الأخبار عن
خطبة قس ورواية النبي لها تصادم في الروايات . وقد ذكر ذلك العلماء ، واني
أرى أن القصة موضوعة ، وهي من هذا النوع الذي وضع للتبشير بقرب ظهور
دين جديد .

وقد أشير الى قس في أبيات نسبت الى الحطيئة والأعشى ولييد . وقد ضرب
الحطيئة به المثل في البيان ، وبقوة تأثيره في نفوس السامعين . أما الأعشى فقد
وصفه بالحلم ، وأما لييد فقد قال فيه :

وأخلفن قساً ليتني ولعلني وأعياء على لقمان حكم التدبر

١ العقد الفريد (٢٥٤/٢) .

٢ Hastings, Dict., Vol., I, p. 194.

٣ الخزانة (٨٩/٢) وما بعدها ، (عبد السلام محمد هارون) ، البيان والتبيين
(٥٢/١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (٢٦٣/١) ، (بولاق) .

٤ السيرة الحلبية (٢١٠/١) ، اللآلئ (٩٥/١) .

فيقولون : وانما قال ذلك ليبد ، لقول قس :

هل الغيب معطى الأمن عند نزوله بحال مسيء في الأمور ومحسن
وما قد تولى فهو لا شك فائت فهل ينفعني ليتني ولعلني ؟

ونسبوا اليه أبياتاً من الشعر^١ .

وردد ان (الجارود بن عبدالله) من (بني عبد القيس) ، وكان سيداً في
قومه لما قدم على رسول الله ، وأسلم مع قومه ، قال له الرسول : « يا جارود
هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قالوا : كلنا نعرفه يا رسول
الله ، وأنا من بين يدي القوم كنت أقضو أثره . كان من أسباط العرب
فصيحاً ، عمر سبعائة سنة ، أدرك من الخواريين سمعان ، فهو أول من تأله من
العرب ، كأني أنظر اليه يقسم بالرب الذي هو له ليلغن الكتاب أجله وليوفين
كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادكار ولبالٍ خلا لهنّ نهارٌ

في أبيات آخرها :

والذي قد ذكرتُ دلّ على الله نفوساً لها هدى واعتبار

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا جارود ، فلست أنساه
بسوق عكاظ على جمل أورك ، وهو يتكلم بكلام ما أظن اني أحفظه . فقال
أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، فإني أحفظه : كنت حاضراً ذلك
اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته : يا أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم
فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، الى
آخر ما أورده من الوعظ^٢ .

و (الجارود) ، هو (بشر بن عمرو بن حنش بن النعمان) ، وقيل هو

١ المرزباني ، معجم (ص ٣٣٨) .

٢ الخزائنة (٨٩/٢) ، سيرة ابن سيد الناس (٦٩/١) .

(أبو المعلّى) ، (الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة)^١ ، وقيل : (الجارود بن المعلّى) ، ويقال ابن عمرو بن المعلّى ، وقيل الجارود بن العلاء ، وقيل الجارود بن عمرو بن حنش ، وقيل اسمه بشر بن حنش ، الى غير ذلك من أقوال تدل على اضطراب أهل الأخبار في معرفته ، وكان نصرانياً ، وكان شاعراً ، وأوردوا له شعراً يعلن إيمانه بالرسول ، وبأنه حنيف حيث كان من الأرض . قيل إنه قتل بفارس في أيام عمر سنة (٢١) ، وقيل بقي الى خلافة عثمان^٢ .

وذكر (الجاحظ) أن من خطباء العرب : (الصباح بن شفي) الحميري ، زعم أنه كان من أخطب العرب ، وقيس بن شماس ، وثابت بن قيس بن شماس ، خطيب النبي ، فقد أوكله الرسول بالرد على خطاب من كان يخطب أمامه من الوفود ، فهو الناطق باسمه بالثر ، كما كان (حسان) الناطق باسم الرسول شعراً . وذكر أن من خطباء العرب (الأسود العنسي) ، و (طليحة ابن خويلد) الأسدي ، تنبأ في خلافة أبي بكر في بني أسد بن خزيمه ، وعاضده (عيينة بن حصن) الفزاري ، فوجه (أبو بكر) اليه خالد بن الوليد ، فهزمه ، وأسر (عيينة) سنة (١١) للهجرة ، وقد أسلم (طليحة) ، واستشهد بنهاوند سنة (١١) من الهجرة^٣ . وذكر (الجاحظ) : (مسيلمة) بعد (طليحة) ، فقال : « وكان مسيلمة الكذاب ، بعيداً عن ذلك كله »^٤ ، أي انه نفى الخطابة عنه .

ومن الخطباء التامهين أصحاب الرأي والبيان ، خطيب عاش في الجاهلية والاسلام وقد أسلم وحسن إسلامه ، هو : سهيل بن عمرو الأعلم ، أحد بني حيسل بن معيص . يقال انه كان مؤثراً جداً ، أخاذاً يأخذ بعقول الناس ، حتى ذكر ان عمر قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلغ لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

- ١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦١) .
- ٢ الاصابة (٢١٨ / ١) ، (رقم ١٠٤٢) .
- ٣ البيان والتبيين (٣٥٩ / ١) .
- ٤ البيان والتبيين (٣٥٩ / ١) .

لا أمثل ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً . دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده . فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قام بخطيباً ، فقال : « أيها الناس ، إن يكن محمد قد مات ، فالله حي لم يموت ، وقد علمتم أنني أكثركم قتباً في برّ ، وجارية في بحر ، فأقروا أميركم وأنا ضامن ، إن لم يتم الأمر ، أن أردّها عليكم » . فسكن الناس^١ .

وهو الذي قال يوم خرج آذن عمر ، وبالباب عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وفلان ، وفلان ، فقال الآذن : أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سلمان ؟ أين عمار ؟ فتمعرت وجوه القوم ، فقال سهيل : لم تتمعر وجوهكم ؟ دُعُوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر^٢ . وفي هذا الجواب دلالة على عقول فاهم للواجب مدرك لمهمات رئيس الدولة ، ولما يجب أن تقوم الحكومة عليه ، لا ييالي بالمنعنا القديمة وبالعرف القبلي الجاهلي .

وروي « أنه لما هاج أهل مكة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتد من ارتد من العرب ، قام سهيل بن عمرو خطيباً . فقال : والله إنني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها الى غروبها ، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم - يعني أبا سفيان - ، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكنه قد جثم على صدره حسد بني هاشم . وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمدينة^٣ . وقد كان مخلصاً في عقيدته مطيعاً لأمر الحاكم ، ذكر أنه حضر « الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيهم سهيل بن عمرو

-
- ١ البيان (٣١٧/١) ، (من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) ، الاصابة (٢٩/٢) ، (وقم ٣٥٧٣) ، الاستيعاب (١٠٧/٢) وما بعدها ، البيان والتبيين (٥٨/١) ، (عبد السلام محمد هارون) .
 - ٢ البيان (٣١٧/١) « لجنة » .
 - ٣ الاستيعاب (١٠٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، البيان والتبيين (٣١٧/١) .

وأبو سفيان بن حرب ، وأولئك الشيوخ من قريش ، فخرج آذنه . فجعل يأذن لأهل بدر ، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يجهم . وكان قد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ! انه ليؤذن هؤلاء للعبيد ونحن جلوس ، لا يلتفت لنا ! فقال سهيل بن عمرو ، وقال الحسن : ويا له من رجل ، ما كان أعقله ، أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً ، فاغضبوا على أنفسكم ، دُعي القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم . أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فتناً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه . ثم قال : أيها القوم ! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم والله الى ما سبقوكم اليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة ، ثم نفص ثوبه وقام ولحق بالشام^١ . فالرجل مؤمن ، صاحب مبدأ ، يرى الفضل لأصحابه بأعمالهم ، لا بالرئاسة والنسب والجاه ، كما كان يريد أبو سفيان وقومه .

وقد نعت بـ (خطيب قريش)^٢ ، لفصاحته وقوة بيانه ، ولهذا اختارته قريش ليكون لسانها حين فاوضت الرسول على الصلح في الحديبية . وقد تكلم فأطال الكلام وتراجع مع الرسول حتى وافق على تدوين كتاب الصلح^٣ . وكان هو لسان قريش يوم وضع الرسول يده على عضادتي باب الكعبة ، فقال : « ما تقولون » ؟ فقال سهيل : « تقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت »^٤ .

وتعد (ابنة الحس هند الإيادية) ، وهي بنت (الحس بن حابس) ، رجل من إياد ، من النساء المعروفات بالفصاحة . وقد رووا عنها الأمثال . وذكر ان والدها هو (حس بن حابس بن قريظ) الإيادي . وقال بعض أهل الأخبار ان ابنة الحس من (العاليتق) . والإيادية هي (جمعة بنت حابس) الإيادي ،

- ١ الاستيعاب (١٠٩/٢) وما بعدها .
- ٢ الاصابة (٩٢/٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .
- ٣ الطبري (٦٣٣/٢) وما بعدها .
- ٤ الاصابة (٩٢/٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .

وكلتاها من الفصاح . وذكر بعض آخر ، ان الصواب ان ابنة الخس المشهورة
بالفصاحة واحدة ، وهي من (بني إيراد) . واختلف في اسمها ، فقيل هند
وقيل جمعة . ومن قال انها بنت حابس ، فقد نسبها الى جدها^١ .

ومن ضرب به المثل في الفصاحة (سحبان بن زفر بن إياس) الوائلي ،
واثل باهلة . خطيب مقصح يضرب به المثل في البيان ، أدرك الجاهلية وأسلم ،
ومات سنة (٥٤ هـ)^٢ . شهرته في الاسلام ، كشهرة (قس) في الجاهلية .
واشتهر (هيدان بن شيخ) (هيدان بن سنح) ، بكونه خطيب (عبس) ،
وذكر أن النبي قال للنابغة الجعدي : لا يفضض الله فاك ، وقال لهيدان : رب
خطيب من عبس^٣ .

والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها ، ودليل
ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول ، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها
وطريقة إلقائها عن أسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء . ثم إن خطب
الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء ، هي دليل أيضاً على وجود الخطابة
بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين . بل نجد أن الخطابة كان لها شأن
في الحياة العربية في الجاهلية وفي الاسلام . ففي المناسبات مثل عقد زواج ، لا بد
للخاطب من خطبة يخطبها أمام العروس والحاضرين ، يذكر فيها مناقب موكله
ومناقب الأسرة التي رغب العروس في مصاهرتها ولعلها هي التي حملت الناس على
نعت هذه المناسبة بـ (الخِطْبَة) و (بخطبة العروس) ، حتى قيل : « جاء
يخطبُ فلانة لفلان » ، وان فرق العلماء بين (الخِطْبَة) التي هي الموعظة والكلام ،
وبين (الخِطْبَة) التي هي طلب المرأة ، بالحركة ، فذكروا أن الأولى هي بضم
الخاء والثانية بكسرها^٤ .

- ١ تاج العروس (١٣٧/٤) ، (خس) .
- ٢ الخزائنة (٣٤٦/٤) وما بعدها ، (بولاق) .
- ٣ البيان والتبيين (٢٧٣/١) ، الاصابة (٥٨١/٣) ، (رقم ٩٠٢٨) .
- ٤ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٥٠) .

ونجد في كتب الأدب والأخبار نصوص خطب نسبت الى خطباء جاهليين ، يخرج المرء من قراءتها ومن قراءة ما ذكره أهل الأخبار عنها ، بأنها نصوص دقيقة تمثل الأصل تمام التمثيل ، أو كأنها نسخ استنسخت عن نسخ أصلية كتبها الخطباء بأنفسهم ، أو دوتها كتاب شهود كانوا حضوراً وقت القاء الخطب . ونحن وإن تعودنا على اعتبار هذه الخطب ، وكأنها خطب أصيلة لا شك عندنا في أصالتها ولا شبهة . لكننا لا نستطيع اقتناع أنفسنا ولا غيرنا بصحة رأينا هذا . وإذا كنا قد قبلنا ما قيل لنا عن الشعر الجاهلي ، فإننا لا نتمكن من قبول ما يذهب اليه الأدباء المقلدون من أن الخطب المنسوبة الى خطباء الجاهلية ، هي نصوص دقيقة صحيحة ، أو ان أكثرها صحيح لا شك لأحد في صحته ، وذلك لأسباب : منها ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم من قولهم « وكان الخطيبُ من العرب اذا ارتجل خطبةً ثم أعادها زاد فيها ونقص »^١ ، ثم ما نجده من اختلاف في رواية خطبة (قس بن ساعدة) ، ومنهم أناس حضروا خطابه ، فكيف نصدق صحة نصوص خطب لأناس جاهليين تبلغ عدة صفحات .

وكيف يصدق انسان بصحة ما ينسب الى الجاهليين من خطب وأقوال ، وهو يعلم ان خطبة (حجة الوداع) ، قد اختلف الرواة في رواية نصها اختلافاً كبيراً^٢ ، واذا كانوا قد اختلفوا في ضبط نص خطبة تعد من أهم خطب الرسول ، لما جاء فيها من بيان وأحكام ، وكلام الرسول أفضل كلام للمسلم ، فهل يعقل أخذ موضوع صحة نصوص خطب الجاهليين ، على انه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى ! واذا كان المسلمون قد جوزوا رواية حديث رسول الله بالمعنى ، لصعوبة الرواية بالحرف والكلم والنص ، فهل يعقل ضبط الناس لخطب الجاهليين ، ضبطاً تاماً كاملاً بالحرف والمعنى ، مع ان كلام أهل الجاهلية لا يقاس بكلام الرسول في نظر المسلمين من دون شك .

١ اللسان (٣٤/١٢) ، (أمم) .

٢ راجع نصها في تاريخ اليعقوبي (٢/٩٩ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

والأمر بالنسبة للشعر الجاهلي من حيث الصنعة والافتعال أهون أمراً في نظري من موضوع الخطب الجاهلية ، فالشعر كلام موزون مقفى وهو غير طويل ، يمكن حفظه بسهولة ، ويمكن تخزينه في الذهن أمدأ طويلاً ، أما النثر ، فليس من السهل حفظه حرفياً ؛ وإذا حفظ ، فلا يمكن للذاكرة معها كانت قوية أن تحافظ على صفاته الى أجل طويل ، لا سيما اذا كانت الخطب طويلة ، لا تعاد قراءتها إلا في المناسبات . وللسبب المذكور وخوف المسلمين من التقول على الرسول بما لم يقله من حروف وألفاظ وجمل ، جوّزوا رواية حديثه بالمعنى ، لصعوبة حفظ النص ، فهل تعد خطب الجاهليين أكثر أهمية من حديث الرسول ، حتى نقول انها نصوص مضبوطة صحيحة ، لا غبار على صحتها ، ولا شك من نصها !

وطابع الخطب ، السجع وقصر الجمل والإكثار من الحكم والأمثال ، والتفصيل والإزدواج . ويرد غالب السجع في كلام الكهان لذلك وسم بهم ، فقيل (سجع الكهان) . والسجع في كلام العرب أن يأثف أو آخر الكلم على نسق كما تأثف القوافي ، وأن يكون في الكلام فواصل كفواصل الشعر من غير وزن . وذكر أن الرسول قال لأحدهم وكان يتكلم سجعاً : أسجع كسجع الكهان ! وفي رواية لباكم وسجع الكهان ، وفي الحديث أنه نهى عن السجع في الدعاء . وإنما كره السجع في الكلام لمشاكلته كلام الكهنة . قال (الجاحظ) : « وكان الذي كرهه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رثياً من الجنّ ، مثل حازي جهينة ، ومثل شق وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ؛ كقوله : والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة بيقعاء ، لقد نقر المجدُ بني العشاء ، للمجد والستاء . » فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم

١ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم . وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في ذلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلا ينهاهم^١ . واتبع الخطباء في الاسلام وبعض الكتاب اسلوب السجع في خطبهم وفي كتبهم ، ولا زال السجع محبوباً عند كثير من الناس ، ولهذا فهم يكتبون به .

وأغلب الخطباء هم سادات قبائل وأشرف من أهل القرى ومن أصحاب المكانة والجاه والكهنة والحكام . ومنازلهم تحتم عليهم الخطابة في المناسبات ، لأنهم أسنة قومهم ، فللكلام أثر في نفوس العرب ، يثير الحرب ويهدئ الأعصاب ويعقد السلم ، ويفض المشكل ، فصار من ثم للخطيب أثر كبير في الجاهلية . وكانت القبائل تفتخر بكثرة ما عندها من خطباء . وذكر (الجاحظ) أن رجلاً من حمير قام في مجلس معاوية اجتمع فيه الخطباء ، فقال : إنا لا نطبق أفواه الكيال ، عليهم المقال ، وعلينا الفعال^٢ . ومعناه : إنا لا نستطيع الكلام كما يفعل غيرنا ، ولذلك فأنا لا أريد أن أتسابق معهم ، ثم اننا معشر عمل لا قول . و (الكيال) ، بمعنى الجمال ، جمع جمل ، نطق بها بالكاف على لغة أهل اليمن القديمة ، لأن لسان حمير ينطق الجيم كافاً مفخمة .

ويلاحظ أن أكثر الذي ذكره أهل الأخبار من كلام الخطباء ، هو وصايا زعم أهل الأخبار أن أولئك الخطباء أوصوا بها أبناءهم ، وذلك حين تقدمت بهم السن ، وحين شعروا بدنو أجلهم . وهي تمثل خلاصة تجارب الموصى ومجمل ما حصل عليه من اختبارات في هذه الحياة . وهي على الجملة حكم ، وآراء في الدنيا ، ومواعظ ، لا تخطر إلا على بال رجل سئم من الحياة ويشس منها ، أو من زاهد متصوف متدين يؤمن بإله وبحساب وكتاب ، وجد ان الحياة مدبرة ، وانها زائلة فانية ، لا تدوم لأحد ، لذلك يريد أن يوصي أبناءه بما وجده فيها وخبره ورآه .

ولم يهمل أهل الأخبار ذكر أهل العمى والبلادة ، وهم على قلتهم وضآلة

١ البيان والتبيين (١ / ٢٩٠)
٢ البيان والتبيين (١ / ٣٩٨)

عدددهم مجتمع خاص قائم بذاته ، فأشاروا الى نوادرهم وبعض قصصهم، وجعلوا رأسهم وحامل لوائهم في الجاهلية شخصاً ضربوا به المثل في العي ، دعوه (باقلاً) وجعلوه من قيس بن ثعلبة . وقالوا : إن من حماقته وعيّه أنه اشترى عتراً من الأطباء بأحد عشر درهماً ، فقيل : بكم اشتريتها ؟ فأطلق كفتيه ومدّ أصابعه وأخرج لسانه ، أي يعبده بلسانه وأصابعه ، فنفرت العترة ، فعبر بذلك : وفيه يقول الشاعر :

يلومون في حماه باقلاً
كان الحياقة لم تخلقاً